تقديم

الشيخ/ محمد عيّاد الطنطاوي

الأزهري الذي مات ظلمًا واغترابًا في روسيا

بقلم: أ. يوسف القعيد

حتى أنا ظلمته دون أن أدري، وقفت في طابور من ظلموه، وهو أطول طابور لظلم إنسان، يمتد في الزمان من القرن الماضى، ويصل حتى زماننا، ويتربع فى المكان، من روسيا إلى مصر المحروسة، مرورًا بالإمبراطورية العثمانية.

والحكاية، أنني قضيت أسبوعًا فى مدينة لينينجراد بالاتحاد السوفييتي، كانت الزيارة الأولى، حيث العودة إلى بحار الدهشة القديمة، ومحاولة تذوق المرئيات.

بعد العودة، وجدت السؤال فى انتظاري:

ـ هل زرت قبر الشيخ الطنطاوي؟! وقرأت الفاتحة على روحه؟.

بدأت رحلة البحث عن هذا الأزهري المدفون في أصقاع بلاد الشمال الباردة، من الصعب القول إننا قد نسيناه؛ لأن أجيالاً كثيرة خرجت إلى الحياة لا تعرف من هو الشيخ الطنطاوي؟.

اسمه بالكامل: محمد بن سعيد بن سليمان عيَّاد المرحومي الطنطاوي الشافعي، وُلد فى قرية نجريد، من قرى الغربية سنة ١٣٢٥ من بعد هجرة الحبيب المصطفى(صلى الله عليه وسلم)، و١٨١٠ من بعد ميلاد السيد المسيح(عليه السلام).

كان والـده مـن قرية محلّة مرحوم، وفي ذلك الزمـان البعيد، كانت محلّة مرحوم لها وزن أكثر من طنطا التى أصبحت عاصمة الإقليم، عندما بنى علي بك الكبير مسـجدًا في طنطا للولي المعروف السـيد أحمد البدوي فتغير الحال، أحيلـت العاصمة القديمة إلى المعاش، وخرجت إلى الوجود عاصمة أخرى، والمدن كالنـاس، تُولد وتكبر، ثم تأتي إليها الشـيخوخة، وأخيرًا الموت، وكان والده يعمـل في التجـارة، وكان له شـقيق واحد هو مصطفى، وقـد عمل بالتجارة أيضًا.

جـاء محمد عيَّاد الطنطاوي إلى عالَمنا، بعد حكاية نابليون بونابرت الذي حضـر إلى مصر، ومعـه المدفع والمطبعة، ثم عـاد ومن بعده جنـده، معهم المدافع ولكنهم تركوا المطبعة في بر مصر، وانبثق التاريخ عن المغامر الجسـور، تاجر الدخـان الألباني الذي قرر أن يسـتنبت طموحه الذي لا حدود له، وأحلامه التي لا تعـرف المنتهى في تربة وادي النيل العظيم، جاء ببـذور أمانيه من أوروبا؛ ولذلك كان من الطبيعي أن يرسل النوابغ والنابهين إلى أوروبا.

كانت تلـك هي الكلمة الأولى في مصر الطنطـاوي. وإن كان قد رحل صوب الإمبراطورية الروسـية بدلاً من فرنسـا، التحق الطنطـاوي بالكُتَّاب في سـن السادسة. وكانت شهرة طنطاوي في تحفيظ القرآن تماثل شهرة القاهرة في دراسة علوم الدين، وقد قيل: ما قرآن إلا أحمدي، وما علوم إلا أزهرية.

في سـنة ١٣٣٨هـ، ١٨٢٣م، رحل محمـد إلى القاهرة، دخل الأزهر الشـريف، وكان رفاقه في الدراسـة هم: رفاعـة رافع الطهطاوي، الـذي أصبح صديقًا له، علـى الرغم من أن الطهطاوي كان يكبره بعشـر سـنوات، وبعد ذلك أصبح الطهطـاوي علَـمَ المرحلة و نجمهـا الكبير، في حين انزوى الطنطـاوي في زوايا النسـيان، حتـى كتابه: "تخليـص الإبريـز في تلخيص باريز"، فاق في شـهرته كتـاب طنطاوي: "وصف روسـيا" الذي مـا زال مخطوطًا حتـى الآن، بل إن من كتبـوا بعد ذلك عن الكتابـين يقولون: إن طنطاوي كتب وصف روسـيا، وهو تحت تأثير كتاب الطهطاوي.

وصف روسيا والاسم الذي اختاره له مؤلفه الشيخ الطنطاوي: تحفة الأذكيا بأخبار مملكة الروسيا (نسخة سان بطرسبرج) ، وهو المخطوط الذي ظل في مجاهل النسيان، وفي غياهب الظلمات، نسمع عنه ولم نقرأه؛ إلي أن جرت قراءته مؤخرًا وتحقيقه وتدقيقه بمعرفة الصديق الدكتور علي متولي أحمد، باحث في مركز تاريخ مصر المعاصر، دار الكتب المصرية. وها أنذا أكتب مقدمة لهذا الكشف العلمي والأدبي والحضاري المهم، وهو ما لم أكن أتصور أن يمتد بيَ العمر حتى أقوم به.

نكمل حكايتنا:

كان من رفاق الشيخ محمد عياد الطنطاوي، الشيخ محمد قطة العدوي محقق كتاب العروض ومحقق النسخة الأصلية والأساسية من "ألف ليلة وليلة"، التي طبعتها مطبعة بولاق الأميرية، وهي النسخة التي عاشت عليها كل الأجيال حتى لحظة كتابة هذه السطور.

وكان من أساتذة طنطاوي: حسن العطار، وإبراهيم الباجوري، ومحمد الترميذي صاحب القاموس الشهير: تاج العروس، اتجه طنطاوي إلى دراسة علوم اللغة في زمان كان كل أبنائه يتجهون إلى الفقه أولاً، والفقه أخيرًا، وكأنه بذلك قد بدأ الخطوة الأولى في السباحة ضد تيار العصر، وربما كان عطاؤه أهم وأكثر تحضرًا في ميدان علوم اللغة، ولكن العصر كان عصر تفقه أكثر من دراسة في اللغة.

تُوفي والد طنطاوي بعد وصوله إلى القاهرة بخمس سنوات، فكان عليه أن يُدبر شئون حياته إلى جانب الاستمرار في دراسته، في سن العشرين قام بالتدريس في الأزهر رغم أنها سن مبكرة، وكان يعطي دروسًا في الشرح والتعليق على كتب الشعر والأدب، وفي السابعة والعشرين من عمره جاء إلى مصر وباء، وما أكثر الأوبئة في هذا الزمان، وكاد يفتك به، لدرجة أن خبر وفاته عرف وأعلن في القاهرة، ولكنه نجا من موت محقق.

قضى في الأزهر عشر سنوات مدرِّسًا، وانقطع عن التدريس في بعض الأحيان بسبب مرضه، وسيصبح المرض بعد ذلك رفيق رحلته وأنيس غربته، وسيقعده عن العمل في الوقت الذي يصل فيه إلى ذروة المعرفة والانتشار، والمرض لم يكن مشكلته الوحيدة، مرتب الأزهر كان ضئيلاً، وكان لا بد من عمل لكي يعيش، وهكذا عمل طنطاوي في وظيفة ثانية.

يبدو أن العمل الثاني الذي يمسك برقاب المثقفين في مصر عمره أطول مما نتصور، ربما كان مؤامرة قديمة لأكل المواهب، وتبديد الوقت وتعكير صفاء الذهن، ونسف القدرة على الإبداع.

كانت مصر قد عرفت المطبعة والطباعة، وهكذا وجد طنطاوي عمله الثاني وهو التحرير والتصحيح لما يُنشر من علوم أوروبا، لكنها القوانين، الأقوى والأكثر خلودًا في مصر، التي اخترعت الأبدية، قوانين الأزهر منعته من العمل الثاني، فبحث عن عمل آخر لا يعترض عليه الأزهر، وقد كان.

عمل في تدريس اللغة العربية وآدابها للفرنجة، كان أول عالم لغوي، في أول مدرسة في زمانه. وكان هذا التدريس هو الذي غيَّر مجرى حياته كلها، كان من تلاميذه مستشرقون فرنسيون وألمان، ومن بينهم - وهذا هو المهم- اثنان من روسيا، التي لم يكن قد أطلق عليها الاتحاد السوفييتي بعد. ولم تكن قد عادت إلى لقبها القديم بعد أن جرى لها ما جرى، حيث أول تجربة في تاريخ البشرية لحلم اشتراكي، أو لنقل شيوعي. شهد القرن العشرين قيامه، وشهد أيضًا نهايته.

الطالبان الروسيان هما: موخين وفرين، الأول هو: نيقولا موخين الذي كان مترجمًا في القنصلية العامة الروسية في مصر سنة ١٨٣٥، ثم نقل إلى إسطمبول بعد عامين، مترجمًا رابعًا في السفارة الروسية هناك. التي كانت أهم سفارات روسيا في الشرق كله، حيث الإمبراطورية المترامية الأطراف التي لا تحدها حدود.

تشاء أقدار الطنطاوي أن يكون نيقولا موخين هو موافق رحلته إلى بطرسبرج بعد ذلك. والثاني هو رودلف فرين، كانت تلك هي الخيوط التي نسجت مصير الرجل، ورسمت شكل حياته.

في سنة ١٨٤٠ وجهت الدعوة بإذن من قيصر روسيا، وموافقة محمد علي باشا إلى الشيخ الطنطاوي ليسافر إلى روسيا ليقوم بتعليم اللغة العربية وآدابها في القسم التعليمي التابع لوزارة الخارجية الروسية في بطرسبرج، وكانت هي عاصمة روسيا القيصرية. وأصبح اسمها بعد ذلك لينينجراد. وقد نقلت العاصمة فيما بعد إلى موسكو، وذلك أن دوام الحال من المحال.

وحسب تقاليد ذلك الزمان، استعد الشيخ الطنطاوي للسفر إلى روسيا وربما يحتاج إليه سفره، وكانت أهم بنود ذلك الاستعداد أنه اشترى جارية، وأرسلها لكي تحصل العلوم في باريس، كنوع من الإعداد لها للحياة الجديدة، ثم تزوجها حتى لا يكون وحيداً في غربته وكانت هذه الزوجة تدعى "أم حسن".

غادر الطنطاوي القاهرة، يوم السبت الرابع والعشرين من المحرم سنة ١٢٥٦هـ، الموافق السادس عشر من مارس سنة ١٨٤٠. وركب صندلاً في النيل، كان يسير ويتوقف حسب حالة الجو، مر بشبرا التي كانت مشهورة ببساتينها، ولم يمر علي طنطا؛ لأن طريق بحر النيل، لم يكن يحضنها، كان بعيدًا عنها، ولكنه شم رائحتها عندما استنشق هواء الغربية، لم يتوقف فعفريت السفر كان قد ركبه وانتهى الأمر، ولم يعد قادرًا على أن يحط على الأرض.

وصل إلى الإسكندرية يوم الثاني والعشرين من مارس، وكان لكل مدينة باب يقفل إذا جاء الليل، يحميها من قطاع الطرق ورجال المنسر، ولا يفتح الباب إلا صباحًا، وصل الطنطاوي إلى الإسكندرية بعد أن أقفلت أبوابها فاضطر إلى المبيت خارجها.

في الإسكندرية، المدينة التي يأتيها البحر، وتضاجعه كلما أكل قلبها الاشتياق للفعل، قضى طنطاوي عدة أيام عند قنصل روسيا العام، ركب بعدها باخرة في البحر المالح، لأول مرة في حياته، ذلك البحر الذي بلا شاطئ آخر.

وفي السادس والعشرين من مارس، أصيب بدوار البحر. كان السفر عن طريق جزيرة كريت، حيث تزودت السفينة بالفحم الحجري اللازم للوقود، وصلت إلى أزمير في الثالث من إبريل، قطعت الباخرة بحر مرمرة ووصلت إلى إسطمبول، وأمضى الطنطاوي أيامًا في الحجر الصحي، وقابل السفير الروسي الذي كلف الترجمان موخين، تلميذ الشيخ سابقًا، بمرافقته في رحلته إلى روسيا.

غادر إسطمبول في الثالث والعشرين من إبريل، ركبا باخرة روسية، وخلال أربع وخمسين ساعة فقط وصلا إلى أودسا، أنفق الشيخ الطنطاوي هذه الساعات في دراسة اللغة الروسية، كان الوصول إلى أودسا في الخامس والعشرين من أبريل، وقضى وقته الذي مكثه في الحجر الصحي في تعلم الروسية أيضًا.

شاهد في أودسا الأوبرا الإيطالية، حيث رأى رواية السلطان محمد في المرة الأولى، وفي الثانية رواية العاشقين، ولم يكن في المسرح من يلبس العمامة سواه، غادرا أودسا يوم الأربعاء، الثاني والعشرين من مايو، اخترقا روسيا من جنوبها حتى شمالها. بعربات البريد التي تجرها الخيول وتمشي ببطء شديد، رأى الطنطاوي بلاد سهولها شاسعة وأنهرها عريضة، وخضرتها كثيفة وتخلو تمامًا من غبار الشرق الأوسط وحرارته وقيظه.

في الخامس والعشرين من مايو، وصل إلى مدينة كييف، ونزل في فندق لندن، وتركها بعد يومين من الراحة، ووصل إلى قرية موهلوف في الثلاثين من مايو، وأقام فيها ثلاثة وعشرين يومًا؛ لأن موخين، رفيق الرحلة، ومترجمها، كان له أقارب في القرية وطالت زيارته لهم.

فرك الطنطاوي عينيه من الدهشة وهو يرى المغناطيس لأول مرة في حياته، وسلك أذنيه الشرقيتين على صوت العزف على البيانو في بيوت الأهالي، وحضر حفلات الرقص، وزار الحمامات التي كانت تتفوق عليها حمامات القاهرة وإسطمبول كثيرًا.

في يـوم السـبت الثاني والعشـرين مـن يونيو غـادر الطنطـاوي موهلوف، وسمع عن أصداء حريق مدينة الإسـكندرية، الحـدث القديم الذي تجدد بعد ذلك أكثر من مرة. والإسـكندرية مدينة بدأت صغيرة بناها الإسـكندر ذو القرنـين، ثم أصبحـت فيما بعد واحدة مـن أعاجيب الدنيـا القديمة. وأصبحت مكتبتها منارة العلم في زمانها. ورأى السكة الحديد الجديدة في روسيا.

وفي يوم السبت التاسع والعشرين من يونيو سنة ١٨٤٠ وصل إلى بطرسبرج، بعد سـفر دام ثلاثة أشهر ونصف الشـهر، قضى منها شهرين في الحجر الصحي، وقريـة موهلـوف، وصل في زمـن كانت الرومانسـية الغربية، قـد خلقت حالة غريبـة مـن الاهتمـام بالشـرق؛ لذلـك كان من الطبيعـي أن يجتذب الشـيخ الأزهري المعمم أنظار روسيا كلها.

عـاش الرجل في روسـيا، ولكـن الحنـين أكله إلى مصر، فعاد إليها سـنة ١٨٤٤، ثم رجع إلى روسـيا حيث بقي بها حتى توفاه الله. وفي الثامن من أكتوبر سـنة ١٨٤٧، وبعد سبع سنوات على حضوره إلى روسيا عين أستاذًا في الجامعة، وكان ميدان عمله قد اتسع، فشمل الجامعة أيضًا علاوة على وزارة الخارجية الروسية، وفي تدريسه كان يجمع بين الطريقة النظرية والطريقة العملية.

كان يـدرس قواعـد اللغـة العربية، ويشـرح أمثـال لقمان ويقـرأ قطعًا تاريخية من مقامات الحريري، وكان يدرس الترجمة من الروسـية إلى العربية، والخطوط العربية، وقراءة المخطوطات والمحادثة باللغة العربية، وابتداء من سنة ١٨٥٥. بدأ يدرس تاريخ العرب.

وفي الخامس عشـر من أغسـطس سـنة ١٨٥٠، اسـتحق الشـيخ الطنطاوي الشـكر القيصري على جهـوده في التدريس لطلاب بطرسـبرج، وبعد عامين حـاز ميداليـة من أحد ملوك أوروبا شـكرًا له على قصيدة باللغـة العربية، ثم أهداه ولـي عهد القيصر خاتمًا مرصعًا بالجواهر شـكرًا على جهوده. وفي هذه الأثناء كتب عنـه الروس الكثير. قالوا في كتاباتهم، "إن طيبة قلبه وطبعه تشبه صفات الأطفال، وأن ذكاءه واستقامته يستدعيان الاحترام الشديد".

كان الشيخ الأزهري المعمم، يجلس على أريكة في بيته، يشرب الشاي، وللشاي طقوس جميلة في حياة الروس. ثم يتحدث عن مصر المحبوبة، ورواتها ومغنياتها وراقصاتها، وغيرها من المسرات التي كانت تملأ حياته بمصر، وليس لها أي وجود في حياة روسيا، قالوا عنه: "إنسان تغلّب عليه التعصب". كتبوا "مرح وعطوف"، أكدوا: "ليس لمثل طنطاوي آخر في هذا العالم كله".

قام الطنطاوي بالتدريس خمس عشرة سنة منتظمة. ووصلت شهرته إلى أوجها. وفي سنة ١٨٥٥ افتتحت كلية اللغات الشرقية، وكان افتتاحها حدثًا مهمًا بالنسبة له، ولكن يبدو أن لحظات تحقيق الأماني. هي نفسها، لحظات فقدانها، ففي أيام المجد، خانته صحته، والعلة التي تصيب الجسد في الغربة تصبح مأساة، وهكذا أصبحت حياته نوعًا من الهم المتصل. وفي هذا العام نشر آخر مقاله له بالفرنسية، وقال آخر قصيدة شعرية في رثاء القيصر نيقولا الأول.

والذي حدث، أنه في سبتمبر من عام ١٨٥٥، أصيب بشلل في قدميه، والأوراق التي تركها الرجل بخط يده عن هذه الفترة، تكاد الدموع تنزف من الحروف المكتوب بها.

في إبريل ١٨٥٦، طلب من الأطباء أن يمدوا له أجازته المرضية ثمانية وعشرين يومًا، ليسافر إلى بوهيما، وذلك للعلاج بمياهها المعدنية الساخنة، ولا يدري الإنسان لماذا لم يطلب العودة إلى مصر، ويدفن الجزء المصاب منه في رمالها الساخنة؟ ما علينا.

في مارس من العام التالي، طلب السفر إلى الخارج للعلاج، والخط المكتوب به الطلب، وتوقيعه عليه، يشي بمدى تدهور حالته الصحية. وفى السابع من فبراير سنة ١٨٦١ تقاعد عن العمل.

ثم قدمت الجامعة طلبًا لتقدير معاش تقاعدي للطنطاوي، بمناسبة مرور عشرين عامًا على خدمته في روسيا، بسبب مرضه، واستدعى من أجل توقيع الكشف الطبي عليه، فأجاب إنه لا يمكنه المجيء بسبب المرض. ويبدو أن

الكشف الطبي قد جرى في بيته. واستُعفى من الخدمة في ٣١ يناير سنة ١٨٦١. أما التقاعد فقد تقرر في يوليو من السنة نفسها بمبلغ ١٤٢٩ روبلا، ولم يطل زمان انتفاعه به، فقد تُوفي في التاسع والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٦١، وكما يذكر في شهادة لإمام مسجد بطرسبرج، أنه مات من مرض الأكلة.

وهكذا مضى الرجل، ولكن ماذا عن أسرته التي كوَّنها في الغربة؟ في التاسع عشر من مايو ١٨٥٠، ولدت زوجة الطنطاوي ولدًا أسموه "أحمد"، ولأن زوجته "أم حسن" توفيت قبله، توسل الطنطاوي في ١٧ أكتوبر سنة ١٨٦٠ أن يقبلوا ابنه في داخلية إحدى المدارس الوسطى على حساب الدولة الروسية، بسبب مرضه ووفاة زوجته.

وبعد وفاة الطنطاوي، توسل عميد المدرسة الداخلية لدى ولي الأمر أن يبقى معاشه لابنه، وصار الوصي الرسمي على"أحمد" الأستاذ كسوفتش، الذي عرض سنة ١٨٧٠ باسم أحمد على جامعة بطرسبرج شراء مجموعة مخطوطات الطنطاوي، وقد اشترتها المكتبة سنة ١٨٧١.

وهكذا استوطن أحمد الطنطاوي روسيا، وقد قدم في الثلاثين من سبتمبر سنة ١٨٧٢. طلبًا باعتباره تابعًا عثمانيًا، إلى إدارة الجامعة، لكي تعطيه سجل خدمة أبيه، ليقدمه إلى الإدارة الروحانية المسيحية في بطرسبرج لأداء القسم، حتى يستطيع الحصول على التبعية الروسية، وقد توفي أحمد في أواخر القرن التاسع عشر، ودفن في جبانة المسلمين، حيث سبق دفن أمه وأبيه، وجبانة المسلمين كانت موجودة في قرية فولكوف القريبة من بطرسبرج، ولكن الزمان محا تمامًا آثار قبر أم حسن وأحمد، ولم يبق سوى قبر الشيخ الطنطاوي فقط.

وفي الثالث والعشرين، من إبريل سنة ١٨٨٦، قدم الوصي سولفيوف طلبًا إلى إدارة الجامعة، لكي يعطوه وثيقة عن الطنطاوى الابن، ليقدمها لمجلس الإشراف، لإدخال حفيدة الطنطاوي "هيلانة" فى طبقة الأشراف، حتى يمكن تربيتها في دار أيتام الأشراف.

وهكذا نكتشف أن حفيدة الطنطاوي قد أصبحت مسيحية، ويكتشف من يبحثون عن أثر الطنطاوي وما بقى منه أن كل شيء ضاع، مع أنه جاء من من بلاد الأهرام الدافئة، والأهرام بناها المصريون لمقاومة الفناء وبحثًا عن الخلود المستحيل، أما بطل حكايتنا فقد مات في أصقاع روسيا الباردة.

مات الطنطاوي ظلمًا واغترابًا، ولم يحدث إعادة اعتبار له بعد رحيله، كما يحدث عادة، ولكنه كان ضيفًا ثقيلاً غير مرغوب فيه في حياته نفسها. في سنة ١٩٤٠. كتبت سافيليف: "أن اسم الطنطاوي معلوم لدى كل من يدرس العربية. مع أنه لم يؤلف شيئًا". وكتب غويفوريف: "أن تدريس الشيخ الطنطاوي، لم يترك أى أثر في روسيا، والدور الأساسي الذي لعبه كان في الاستشراق الفنلندي".

أما الدكتور أغناطيوس كراتشوفسكي، مؤسس الاستشراق في روسيا كلها، فقد وضع يديه على قدر الطنطاوي ومأساته معًا، في كتابه الجميل الذي ألَّفه عنه(★)، وتأليف هذا الكتاب حدث مهم لمن يعرف قدر مؤلِّفه، في روسيا والعالم، يقول كراتشوفسكي:

- "كان الطنطاوي معاصرًا لأغلبية رجال النهضة الأوروبية البارزين في القرن التاسع عشر، لكنه سار على خط غير الذي سار عليه معاصروه المشهورون، لقد بقي في عزلة عن الحركة العامة، ولم يشترك فيها، أو يؤثر في تطويرها، كان الطنطاوي ربيب الأزهر، حيث كانت التقاليد الكلامية ثابتة في ذلك الحين، ولكن الطنطاوي كان بعيدًا عن دائرة صحفيي ذلك العهد الذين تحلقوا منذ سنة ٢٨ حول الجريدة العربية الأولى، وقد انضم الطهطاوي إليهم، ولا ندري كيف يمكن أن نكيف حياة الطنطاوي، لو لم يرحل إلى روسيا وله من العمر ثلاثون سنة".

(★) والكتاب عنوانه: "**حياة الشيخ محمد عيَّاد الطنطاوى**". تأليف: أغناطيوس كراتشكوفسكى، ترجمه إلى العربية: كلثوم عودة وراجع النص العربى وحققه وعلق عليه، عبد الحميد حسن ومحمد عبد الغنى حسن ونشره: المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية سنة ١٩٦٤، ولولا هذا الكتاب الفريد والمهم ما كان ممكنًا كتابة هذا المقال عن الشيخ الطنطاوى.

ولكنه انعزل عن حياة وطنه الروحية حتى كاد يُنسى لدرجة أن العلماء المصريين، المندوبين في مؤتمر المستشرقين، المنعقد في ستوكهولم سنة ١٨٨٩، ما كانوا يعلمون عن وفاة مواطنهم، التي وقعت قبل ذلك بثمانية وعشرين عامًا كاملة.

كل هذا جرى، على الرغم من أن الطنطاوي ترك حين وفاته واحدًا وأربعين مؤلَّفًا، معظمها، مخطوط لم ينشر حتى الآن، لعل أهمها كتابه الفريد: "وصف روسيا" وعنوانه الكامل: "تحفة الأذكيا، بأخبار بلاد روسيا، وقد أهداه إلى السلطان عبد المجيد".

ورغم مرور كل هذه السنوات على رحيله، إلا أن أحدًا من بني وطنه، من مصر، لم يتحرك، لتحقيق كتبه ونشرها، ودراسة رحلته الفريدة والدور الذي قام به. وما أكثر الرسائل الجامعية التي تلوك ما قيل من قبل وتكرره، وتعيد وتزيد، مهملة منجم ذهب حقيقي يتمثل في آثار هذا الرجل، الذي طارده الظلم والغربة، حيًا وميتًا، ولاحق الظلم نتاجه الأدبي والفكري، وحتى أسرته لاقت نفس المصير.

إلى أن جاء صاحبنا الدكتور علي متولي أحمد وحقّق أحد كتبه، وأتمنى أن يعكف على تحقيق باقي أعماله ويستعيده لنا من الغربة التي عانى منها حيًا، وكتب عليه أن يعاني منها ميتًا.

قام الطنطاوي برحلته، في الوقت نفسه الذي قام فيه الطهطاوي برحلته إلى باريس، ولكن الأول بقي في روسيا، في حين عاد الطهطاوي، والأول طواه النسيان والنكران والثاني أصبح علمًا على عصر بأكمله.

اغترب الطنطاوي عن الوطن والديار، في زمن لم يكن المصري قد تذوق فيه طعم الاغتراب، ولا كواه الحنين إلى بر مصر.

قضى سنوات عمره في أبعد مكان عن مصر، في ذلك الوقت البعيد، والغربة أسلمته إلى ظلم بيِّن، وحتى الآن لا أعرف من أين جاءت البداية، الغربة

التي أوصلته إلى ظلم، أو الظلم الذي رمى به إلى الغربة، أم أن كل عصر يكون فيه رجل واحد، يذبح كل أبناء جيله من أجل أن يمتد ظله إلى العصر كله..؟!.

هذه هي المرة الثانية التي أكتب فيها عن الشيخ محمد عيَاد الطنطاوي، كانت الأولى فى كتابي: الكتاب الأحمر، رحلاتي في خريف الحلم السوفييتي، وهذه هي المرة الثانية التي أتمنى ألا تكون الأخيرة. وأحلم أن يصبح محقق هذا الكتاب ومترجمه هو من يستعيد لنا الشيخ «محمد عيَاد الطنطاوي» من الغربة.

يوسف القعيد
مدينة نصر- القاهرة
نوفمبر ٢٠١٧

دراســـــة

بين يـدي القارئ الكريـم إحدى المخطوطـات المهمة للشـيخ محمد عيّاد الطنطاوي، والمسـماه بـ«تحفة الأَذْكِيا بأخبار مملكة الرُوسِـيا»، وتُعَدُ من أروع بواكير الأدب العربي الحديث ذات الأهمية الثقافية والتاريخية، شأنها في ذلك شـأن كتاب وصف باريس للشـيخ رفاعة الطهطاوي، ونظرًا لأن الكثير منّـا يعلم من هو الطهطاوي، في حين أن القليل منّا يعلم من هو الطنطاوي، فإن هذه الدراسة تحاول التعريف بشخصية مصنف هذا المخطوط.

في النصف الأول من القرن التاسـع عشـر ذاع صيت رجل أزهري مصري، ألا وهو الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي أستاذ اللغة العربية في معهد اللغات الشرقية بجامعة سان بطرسبرج St Petersburg، وأصبح له صلات وثيقة بمستشرقي عصـره حتى تتلمذ عليـه نفر منهم، وصار اسمه مقرونًا بتاريخ المشـرقيات في روسـيا؛ لـذا فحري بنا أن نعـرف من هو هـذا الطنطاوي المغامر الـذي ترك الأزهر وترك التدريس فيه، وترك مصر ورحل إلى بلاد كان يُعرَف عنها قليلًا، وعاش فيها حياته إلى أن أدركته منيته هناك، فدفن في بطرسـبرج بمقابر المسلمين؟ وماذا عن نشـأته؟ ومن هم العلماء الذين تتلمذ على أيديهم؟ ومن هم تلاميذه؟ وماذا عن مؤلفاته؟ ومتى تُوفي؟ وأين دُفن؟

أولًا ـ مولده ونشأته وشيوخه

هو محمد بن سعد بن سليمان بن عيَاد المرحومي الطنطاوي الشافعي، والمعروف بالشيخ محمد عيَاد الطنطاوي، ولد في قرية نجريد ـ التابعة لمركز طنطا ـ عام ١٢٢٥هـ – ١٨١٠م[١]، وأما محلة مرحوم التي نُسب إليها فليست بدار مولده، ولكنها دار أبيه[٢]، الذي كان يعمل بائعًا للأقمشة والصابون والبن، وفي محلة مرحوم تلقّى علومه الأولية حيث حفظ القرآن، ومن ثم قصد طنطا لإكمال دراسته[٣]، فظل يدرس هناك على أيدي طائفة من الأساتذة ثلاث سنين، وكانت حينئذ حافلة بالعلماء والفقهاء والقراء، حيث قرأ على الأستاذ الشيخ محمد الكومي شرح ابن قاسم في الفقه سنة ١٢٣٦هـ ١٨٢١م، والأستاذ المصنف السيد محمد أبي النجار الذي قرأ عليه أيضا الشرح سالف الذكر عام ١٢٣٧ هـ – ١٨٢٢م، ونتيجة لشغوفه بالعلم ولّى وجهه شطر القاهرة عام ١٨٢٣م، وتتلمذ على أكابر علمائها[٤]، فهو أحد أفراد الطبقة الأولى الآخذة عن الشيخ إبراهيم الباجوري شيخ الجامع الأزهر «ت ١٢٧٦هـ – ١٨٣٥»[٥]، وصاحب التصانيف في العلوم العقلية، ورائد منهج التدريس بالنزعة الأدبية[٦]، حيث قرأ عليه أصول الكتب، ونظر في علوم النحو والفقه والبلاغة والأصول والمنطق والكلام.

---

(١) محمد أبو بكر، من بواكير الاستغراب: محمد العيّاد الطنطاوي ١٨١٠–١٨٦١، مجلة أدب ونقد، ع ٣٥١، مايو ٢٠١٦، ص ١٢.

(٢) محمد عبدالغني حسن، محمد عيّاد الطنطاوي ١٨١٠–١٨٦١، أعلام النهضة الحديثة، المجلد ٨، يونيو ١٩٤٦، ص٢٧٥.

(٣) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٢.

(٤) حسين على محفوظ، الشيخ محمد عياد الطنطاوي، معلم اللغة العربية، العربي الأول في أوربا، مجلة كلية الآداب، العدد ٧، بغداد، نيسان ١٩٦٤، ص ص ٨١، ٨٠.

(٥) أحمد تيمور، الشيخ محمدعياد الطنطاوي، مجلة المجمع العلمي العربي، ، مجلد ٤، دمشق، صفر ١٣٤٢ ، ج ٩، ص ٣٨٨.

(٦) محمد عيّاد الطنطاوي، رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية ١٨٤٠–١٨٥٠، المسماه تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا، قدّم لها وحرّرها د. محمد عيسى صالحية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢، ص ١١.

وقرأ تفسير البيضاوي على الشيخ حسن العطار[1] ، والمتوفي سنة١٢٥٠هـ»[2].

وعلى الرغم من طول رفقة الشيخ الطنطاوي للشيخ الباجوري إلا أن أثره في تكوينه كدارس لعلوم الغرب غير قوي، فالشيخ الباجوري من المحسوبين على المدرسة التقليدية الكلاسيكية، وكان من دعاة عدم التقارب مع الأوروبيين، بل إنه عندما كان طالبًا فضّل الرحيل من القاهرة إبّان وجود الحملة الفرنسية، ولكن يرجع الأثر الكبير في دفع الشيخ الطنطاوي إلى دراسة الغرب ومعرفة علومهم ــ في البداية ــ إلى الشيخ العطار الذي رأى أنه من المستطاع أن يتقرب من الفرنسيين ليتعرف على ثقافتهم[3].

ومن أساتذة الشيخ الطنطاوي أيضا الشيخ الشبيني، والشيخ برهان الدين أبو المعالي، والشيخ مصطفى القناوي الشافعي الأحمدي، شيخ المسجد الأحمدي بطنطا[4]، والشيخ إبراهيم السقا (١٧٩٧ـ١٨٨١) الذي حاز شهرة كبيرة في الخطابة بالأزهر، وتولاها ما يربو على العشرين عامًا، حتى صارت خطبه

---

(١) هو حسن بن محمد بن محمود العطّار، والعطّار أبوه وهو محمد بن محمود كتن، وكان أبوه عطارًا، ومن هنا جاءه هذا اللقب، ولد بالقاهرة سنة ١١٨٠هـ (١٧٦٦م)، ويرتدّ إلى أصول مغربية، ومن شيوخه الشيخ محمد الصبّان، والشيخ العروسي، والشيخ عبدالرحمن المغربي... إلخ، وقد اتصل بالفرنسيين اتصالا علميًا، فكان للعطار ولع بقراءة الكتب المترجمة عن اللغات الأوروبية، خاصة علمي التاريخ والجغرافيا، ونادى بضرورة تطوير التعليم الأزهري من حيث المناهج ومواد الدراسة، وذلك بالرجوع إلى المصادر الأصلية وبتدريس المواد الممنوعة، كما اتصل بالوالي محمد علي باشا، وتولى تحرير الوقائع العربية بين عامي ١٨٢٨– ١٨٣٠، ثم تولى مشيخة الأزهر عام ١٢٤٦هـ، وظل فيها حتى توفي سنة ١٢٥٠هـ (١٨٣٥م). انظر :هنادي يوسف العجب الأمين، القضايا النحوية في حاشية العطار على شرح الأزهرية للشيخ خالد الأزهري:عرض ودراسة، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، السودان، ٢٠٠٥، ص ص ٨،٧؛ سامي بدراوي، الشيخ حسن العطار، رائد البعث الأدبي في مصر الحديثة: ١٧٦٦–١٨٣٥/ ١١٨٠–١٢٥٠هـ، المجلة، ع ٩٩، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، مارس ١٩٦٥، ص ص ٣١–٣٣.

(٢) حسين على محفوظ، مرجع سابق، ص ٨١.

(٣) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٣.

(٤) حسين على محفوظ، مرجع سابق، ص ٨١.

تُحفظ وتُلقى في مناسبات مشابهة لما قيلت فيه[1].

وهناك شيخ آخر من أساتذة الطنطاوي الذين كان لهم تأثير قوي على الطنطاوي وانفتاحه على الثقافة الغربية، وهو الشيخ إبراهيم الدسوقي (١٨١١-١٨٨٣) الذي كان عمله منحصرًا في ميدان التعليم في المدارس الفنية التي كانت تديرها الدولة، أو في تصحيح مسوّدات المطبوعات العلمية في مطبعة بولاق الشهيرة، وكانت له صلة وثيقة بعلماء أوروبيين ممن تركوا أثرا طيبًا في العلوم، مثل المستشرق إدوارد وليم لين[2]، صاحب القاموس العربي الإنجليزي الكبير[3].

وكان من زملائه في الدراسة: رفاعة الطهطاوي، ومحمد قطة العدوي[4]، ومحمد الأشموني[5]، وعبدالسلام المحلي الترمانيني، وعبدالرحمن الصفتي، وعبدالهادي نجا الإبياري، وسرور الدمنهوري.. وغيرهم[6].

وفي عام ١٨٢٧م توفي والده، فترك الطنطاوي الدراسة في الأزهر تحت ضغط الظروف القاسية، وعاد إلى طنطا ومنحه أستاذه الشيخ مصطفى القناوي إجازة

---

(١) زكريا الرفاعي، أزهريون ليبراليون «الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي»، مجلة العصور الجديدة، ع ٧، مارس ٢٠٠٠، ص ١٤٢.

(٢) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٣، انظر أيضًا: زكريا الرفاعي، مرجع سابق، ص ١٤٢.

(٣) جريجوري شرباتوف، الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي أول أستاذ عربي في روسيا ورائد من رواد الدراسات في اللغة العامية المصرية، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج٥٥، نوفمبر ١٩٨٤، ص ٧٠.

(٤) هو محمد بن عبدالرحمن قطة العدوي، وُلد بالقاهرة ودرس العلوم الدينية والعربية في الجامع الأزهر ، وحفظ القرءان وجوّده على أبيه، ووقع عليه الاختيار ليقوم بتصحيح الكتب العربية بمطبعة بولاق الأميرية التي أقامها محمد علي سنة ١٨٢١م، ومن كبار تلامذته الشيخ حسن بن محمد داود العدوي المالكي، والشيخ حسن بن أحمد رفاعي الهواري العدوي، توفي الشيخ محمد قطة في عام ١٢٨١هـ. انظر: محمد حسن محمد يوسف، الشيخ محمد قطة العدوي، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط (جامعة الأزهر)، ع ٦، ١٩٨٦، ص ص١٣٥، ١٤٢-١٤٤.

(٥) زكريا الرفاعي، مرجع سابق، ص ١٤٢.

(٦) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٣.

في التدريس عام ١٨٢٨م[١]، لكنه ما لبث أن عاد للقاهرة مجددًا عام ١٨٣٠م، ليعمل مدرسا بالأزهر، وكان له طابعًا خاصًا في التدريس، حيث حذا حذو شيخه حسن العطار، فأخذ يدرس لطلابه مقامات الحريري وديوان الحماسة لأبي تمام، ويشرح لهم غريب الألفاظ ويبصرهم بمواطن الجمال والقبح فيها[٢]، ويعتبر أول من قرأ المعلقات والمقامات في حلقاته العلمية وهو فى العشرين من عمره[٣].

وبسبب عشقه لعلوم اللغة وآدابها اتُهم بترويج البدع، إذ انصرف إلى الشعر والأدب بدلًا من الانصراف إلى علوم الفقه والحديث، حتى تمنى البعض موته حين أصيب بطاعون سنة ١٨٣٦، وظل يعاني المرض عشرة أيام بلا نوم، وغاب عنه الإحساس والإدراك حتى سلّمه الله، وعافاه بعد أسبوعين، وفي هذا يقول حين أشيع خبر موته شعرًا[٤]:

تمنى أناس أن أموت وإن مت فتلك طريق لست فيها بأوحد

وإن أظهروا موتي فليس بمنكر إذا أظهر الشيطان موت محمد[٥]

وأثناء اشتغال الشيخ عيّاد بالأزهر قام بالتدريس في المدرسة الإنجليزية بالقاهرة "مدرسة الإرسالية البروتستانتية" عام ١٨٣٥[٦]، ونتيجة لازدهار الحركة العلمية في مصر خلال عهد محمد علي، واتجاه الأخير لجذب العقول

---

(١) محمد عبدالمنعم خفاجي، الأزهري الذي وجه الاستشراق الحديث وعلماءه وجهة جديدة: الشيخ محمد عياد طنطاوي، مجلة الأزهر، السنة ٣٦، ج ٨ و٩، شوال وذوالقعدة، ١٣٨٤،ص ٩٥٥.

(٢) زكريا الرفاعي، مرجع سابق، ص ص ١٤٣،١٤٢، انظر أيضًا: عبدالموجود عبدالحافظ، أزهري في روسيا، مجلة الأزهر، المجلد الثاني والثلاثون، ج ٣، صفر ١٣٨٠، ص ١٩٣.

(٣) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٥.

(٤) أبو الحسن الجمال، من محلة مرحوم إلى ربوع بطرسبورغ الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي، مجلة الوعي الإسلامي، أبريل، ع ٦١٠، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،الكويت، ص ص ٦٥،٦٤.

(٥) محمد عيّاد الطنطاوي، مصدر سابق، ص ٩.

(٦) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٥.

الأوروبية للعمل بمختلف الوظائف بمصر، بدأت تفد إلى مصر مجموعات من المستشرقين في مختلف المجالات، ونظرا لحاجتهم إلى تعلم اللغة العربية بدأت العلاقات بين الشيخ عيّاد ومجموعة من المستشرقين بغرض تعليمهم اللغة العربية[1] مثل الدكتور «ر. فراهن» «R. Frahn» الألماني الذي كان أبوه مدرسا للشرقيات في كلية قازان، والدكتور "بيرّون" A. Perron الفرنسي الذي كان يقوم بتدريس الطبيعة والكيمياء بمدرسة الطب المصرية، وكان يجيد العربية كتابة وقراءة وحديثًا، والأستاذ "فليمانس فرنيل" F. Fresnel الفرنسي الذي ترجم لامية العرب للشنفري إلى الفرنسية بمساعدة أستاذه الشيخ الطنطاوي، والذي علم استاذه اللغة الفرنسية[2]. وكتب فرنيل يقول « إنه مدين للطنطاوي الشيخ المصري الوحيد، الذي يُدرِّس لغته بمحبة واهتمام، ويدرس كتب الآداب العربية القديمة»[3]. كذا تعرف الشيخ الطنطاوي على « جوستاف ويل» « G. Weil" الذي كان مدرسًا لتاريخ المشرقيات في كلية هيدلبرج[4]، وله كتاب في تاريخ الخلفاء في ثلاث مجلدات، وتاريخ العباسيين في مصر في مجلدين[5].

ثانيًا- سفر الشيخ الطنطاوي إلى روسيا:

في عام ١٨٠٤ صدر مرسوم منظِّم للجامعات الروسية بمقتضاه أُحدثت أقسام لتدريس اللغات الشرقية فيها، وكان لهذا الحدث أثر كبير على مستقبل الدراسات الاستشراقية عمومًا والاستعرابية منها خصوصًا[6]؛ لأن تاريخ

(١) أبو الحسن الجمال، مرجع سابق، ص ٦٥.
(٢) عبدالموجود عبدالحافظ، مرجع سابق، ص ١٩٣، انظر أيضًا: محمد عبدالغني حسن، مرجع سابق، ص ٢٧٦.
(٣) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٣.
(٤) عبدالموجود عبدالحافظ، مرجع سابق، ص ١٩٣.
(٥) محمد عبدالغني حسن، مرجع سابق، ص ٢٧٦.
(٦) عبدالرحيم العطاوي، الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي والمدرسة الاستشراقية الروسية، أعمال الندوة التكريمية للعلامة محمد بن تاويت الطنجي، مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة، مايو ١٩٩٧، ص ص ٢١٧،٢١٦، انظر أيضًا: محمد عبدالغني حسن، مرجع سابق، ص ٢٧٤.

الاستعراب الروسي في العصر الحديث- على حد تعبير كراتشكوفسكي[1]- ارتبط بهذا المرسوم ارتباطًا وثيقًا؛ لأنه أدخل تدريس اللغات الشرقية في برنامج المدارس العليا، وأسس الأقسام الخاصة لهذه اللغات، وقد شغلت اللغة العربية المكانة الأولى[2]، وأخذت هذه الأقسام تستضيف عددًا من الأساتذة المستشرقين وخصوصًا من ألمانيا وفرنسا، وحينذاك كانت جامعة العاصمة «سان بطرسبرج» تمثل أهم المراكز الاستشراقية في العالم، حيث تمّ تدريس اللغة العربية فيها منذ عام ١٨١٨م، ويرجع الفضل في ذلك إلى مكتبة المتحف الآسيوي – والتي تُعرف حاليًا بملحقة معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية- بسان بطرسبرج، والتي تمثل إحدى كبريات المكتبات الاستشراقية في العالم[3].

وبافتتاح قسم اللغة العربية في جامعة سان بطرسبرج أصبح الفرنسي «ديماج» Demage - أحد تلاميذ المستشرق الفرنسي"سيلفيستر دو ساسي" Sylvester de Sassy - أول رئيس لقسم اللغة العربية في الجامعة خلال الفترة (١٨١٩-١٨٢٢) ، وأعقبه في هذا المنصب الأديب البولوني "سينكوفسكي" Senkovskÿ ، الذي ظل يرأس القسم مدة خمسة وعشرين عامًا،

(١) ولد يوليانوفتش اغناطيوس كراتشكوفسكي في ١٦ مارس ١٨٨٣، بمدينة فيلنيوس البلطيقية، وقضى جزءًا من طفولته في مدينة طشقند بأوزبكستان إثر تعيين والده ناظرًا عامًا لمدارس آسيا الوسطى، ثم تعيينه مديرا للمكتبة العمومية بفيلنيوس عام ١٨٨٨، ورئيسًا لمصلحة الآثار التاريخية، التحق بكلية اللغات الشرقية بجامعة بطرسبرج عام ١٩٠١، وانكب على دراسة اللغات الشرقية كالعربية، والفارسية، والتركية.... إلخ، ودرس العلوم العربية على يدّ الكسندر فيسلوفسكي **Veselovski**، ومن ثمّ عدّ شيخ المدرسة الاستعرابية الروسية خلال النصف الأول من القرن العشرين، وتوفي في يناير ١٩٥١. انظر: ابن ميسة رفيقة، الأبحاث الاستشراقية لكراتشكوفسكي في مجال تحقيق التراث العربي، من أعمال الملتقى الثاني حول مناهج تحقيق النصوص بين الشرق والغرب، جامعة الجلفة، المجلد الخامس، الجزائر، ٢٠١٣ ، ص ص٦٤، ٦٧

(٢) فارس عزيز المدرس، جهود المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي في تاريخ الأدب العربي ١٨٨٣-١٩٥١، ع ٦٤، مجلة آداب الرافدين، ٢٠١٢، ص ص ٦٢-٦٣.

(٣) عبدالرحيم العطاوي، مرجع سابق، ص ص ٢١٦،٢١٧، انظر أيضًا: محمد عبدالغني حسن، مرجع سابق، ص ٢٧٤.

خلال الفترة من ١٨٢٢ إلى عام ١٨٤٧[١]، ووقتذاك ازداد الاهتمام باللغات الشرقية في الجامعات الروسية وخصوصًا جامعة سان بطرسبرج التي كانت تُدرس فيها اللغات العربية، والصينية، والمغولية، والتركية، والفارسية، وذلك بفضل وزير المعارف في ذلك الوقت (م. بوشكين)، ورأى هذا القسم- إتماما للفائدة، ولتكون دراسة اللغات الشرقية متمشية مع دراسة تاريخ أقطارها- ضرورة الاستعانة بأساتذة من الشرق نفسه فهم خير من يقوم بتعليم اللغات الشرقية للطلاب الراغبين من الروسيين وغيرهم من الأوروبيين[٢].

وبناء عليه كلفت روسيا قنصلها في القاهرة ليقوم بهذه المهمة، وأن يتفق مع من يعرف فيه القدرة على القيام بهذه المهمة[٣]، فوقع الاختيار على الشيخ عيّاد الطنطاوي، إذ طلب قنصل روسيا الدوق «مديم» من والي مصر محمد علي باشا إعارة الشيخ عيّاد الطنطاوي لمعهد اللغات الشرقية لتدريس اللغة العربية، ولاقى هذا الطلب القبول من محمد علي باشا فاستدعى إلى ديوانه الطنطاوي وصرّح له بالسفر، وطلب منه ضرورة تعلّم اللغة الروسية ؛ لأنه مشغول بجلب الألسن الغربية إلى مصر ليعرف مدى التقدم العلمي والاجتماعي الذي وصلت إليه بلاد الروس[٤]، ومن الجدير بالذكر أن الوسيط بين نظارة الخارجية والشيخ الطنطاوي لإقناع الأخير بالسفر كان

---

(١) عبدالرحيم العطاوي، مرجع سابق، ص ٢١٦،أنظر أيضًا: بين المخطوطات العربية من القاهرة حتى مقبرة فولكوف في بطرسبرج، ترجمة: محمد منير مرسي، المجلة، ع٨٧، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، مارس ١٩٦٤، ص ٩٩، إبراهيم إبراهيموف، تاريخ اللغة العربية في روسيا وجامعة اللغات الحكومية بياتيجورسك خاصة، مجلة كلية الآداب، جامعة أسيوط، ع ٣٦، أكتوبر ٢٠١٠، ص ٥٨١.

(٢) عبدالموجود عبدالحافظ، مرجع سابق، ص ١٩٣.

(٣) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٦.

(٤) تقديم د. محمد عيسى صالحية في كتاب «رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية ١٨٤٠-١٨٥٠»، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢، ص ١٣.

«بطرس بكتي[1] Bokty" ترجمان القنصلية الروسية بالقاهرة[2]، وكان له الدور البارز في جميع المكاتبات الرسمية الخاصة بسفر الطنطاوي إلى روسيا[3].

وعلى أية حال غادر الطنطاوي القاهرة في ٢٤ محرم ١٢٥٦ه، ٢٦ مارس ١٨٤٠م إلى الإسكندرية، حيث نزل في ضيافة قنصل روسيا فيها «مديم»، وفي ٢٦ مارس ركب باخرة نمساوية إلى اسطنبول، ومنها إلى أوديسا، وفي يوم ٢٩ يونيو ١٨٤٠ وصل إلى بطرسبرج[4]؛ ليتبوأ مقعدًا بين أساتذة اللغات الشرقية في جامعة بطرسبرج، وقوبل الشيخ هناك بالحفاوة، وكان له مرتب سخي، واشتغل منذ ٢ يوليو ١٨٤٠ بالتدريس في معهد اللغات الشرقية، وبالعمل في ديوان الخارجية في بطرسبرج[5]، وقضى الطنطاوي ما يقرب من سبع سنوات مجاهدًا في تدريس اللغة العربية، ثم عُين بعد ذلك في سنة ١٨٤٧ أستاذًا لكرسي اللغة العربية في جامعة بطرسبرج، وعين المستشرق الروسي «نفروتسكي» مساعدًا له[6]، وظل أستاذًا لهذا الكرسي طيلة أربعة عشر عامًا (١٨٤٧-١٨٦١)[7]، ومن ثم كان الشيخ الطنطاوي الرئيس الثالث لقسم اللغة العربية في جامعة بطرسبرج، بعد

---

(١) طرس بكتي كان مندوبًا قنصليًا **Agent Consul** لدولة روسيا في مصر، وكان معروفًا بقنصل المسكوف في مصر، وهو من أسرة سورية قديمة اشتهر أفرادها بحذق اللغات الأجنبية، وكان بينه وبين الشاعر شهاب الدين، شاعر عباس الأول، صلة ودّ، بدأها بطرس نفسه بزيارة للشاعر على غير معرفة، فمدحه الشاعر بأبيات في ديوانه. انظر: محمد عبدالغني حسن، مرجع سابق، ص ٢٧٧، هامش ١.

(٢) كريا الرفاعي، مرجع سابق، ص ١٤٤.

(٣) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٥.

(٤) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٦. انظر أيضًا: رجاء النقاش، الطهطاوي والطنطاوي وأحزان الوطن، مجلة الدوحة، ع ١٠، أكتوبر ١٩٧٦، ص ٣٣.

(٥) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٦، انظر أيضًا:

Vladimir Bobrovnikov, Al-Azhar and Shari›a Courts in Twentieth--. Century Caucasus, Middle Eastern Studies, Vol.37,No.4,Oct.2001, p.4

(٦) عبدالموجود عبدالحافظ، مرجع سابق، ص ١٩٤.

(٧) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق ،ص ٩٥٧، انظر أيضًا: راجية إسماعيل أبو زيد، الزعامة الفكرية للأزهر إبان الحكم العثماني، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، ع٤٢، يناير ٢٠٠٨، ص ٤٥١.

الفرنسي «ديماج»، والبولوني «سينكوفسكي».

كان الشيخ عيّاد الطنطاوي يدرّس قواعد اللغة، ويشرح أمثال لقمان، ويقرأ قطعًا من مؤلفات تاريخية، ومن مقامات الحريري، كما كان يدرّس الترجمة من الروسية إلى العربية، والخطوط الشرقية، وقراءة المخطوطات، والمحادثة باللغة العربية، وزاد على ذلك عام ١٨٥٥م تدريس تاريخ العرب[١].

وفي حقيقة الأمر كان لوصول الشيخ الطنطاوي إلى روسيا أصداء قوية في الصحافة الروسية، والتي رحبت بقدومه معتبرة أن «شهرته منتشرة في أوروبا بين الرحّالة الذين كانوا يدينون بالعرفان لكتاباته التي كان لها دور كبير في نجاحهم واكتشافاتهم»[٢]، كما حظي الطنطاوي بعناية متميزة في روسيا، إذ تمّ تعيينه مستشارًا في الدولة، وقُلّد وسام ستانيسلان، ووسام حنا، بسبب امتياز التلاميذ في البحث، كما قُلد خاتمًا من الألماس[٣]، وكانت وفادة الشيخ الطنطاوي في أهدافها في المرتبة الثانية بعد بعثة رفاعة الطهطاوي إلى فرنسا ولندن، والتي ضمنها كتابه: «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، فإذا كان رفاعة الطهطاوي رائد عصر التنوير من خلال بعثته في أوروبا الغربية فإن محمد عيّاد الطنطاوي هو رائد عصر التنوير من خلال وفادته إلى أوروبا الشرقية[٤].

وظلّ الطنطاوي في روسيا إلى أن جاور ربه، ولم يؤثر ذلك في شيء من دينه وعقيدته، كما يؤخذ من قوله في أول قطعة شعرية أرسل بها إلى أحد أصدقائه بمصر – ولعله الشيخ محمد قطة العدوي.

أنا بين قوم لا أدين بدينهم أبدا ولا يتدينون بديني[٥]

---

(١) أبو الحسن الجمال، مرجع سابق، ص٦٦ .

(٢) عبدالرحيم مرون الوهابي، دور الأساتذة العرب في تطور الاستعراب الروسي، الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي أنموذجًا، مجلة الدفاع (القوات المسلحة السعودية)، مجلد ٣٦، ع ١٠٩، ديسمبر ١٩٩٧، ص ٧٥.

(٣) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٥.

(٤) تقديم د. محمد عيسى صالحية لكتاب «رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية ١٨٤٠–١٨٥٠»، مرجع سابق، ص ١٤.

(٥) اغناطيوس كراتشقوفسكي، الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي، مجلة الزهراء، ع ٧، يوليو ١٩٢٤، رجب ١٣٤٣، ص ٤٢٢.

ثالثًا ـ تلاميذه :

تخـرّج على يد الشـيخ الطنطـاوي فئة كثـيرة من المستشـرقين، وعلى رأسـهم المستشـرق الفنلندي الأصل (والن) G. A. Wallin. الذي أسهم بنصيب كبـير في الأدب العربي هـو وغيره ممن تعلموا في جامعة بطرسـبرج على يد الشـيخ الطنطـاوي[1]، وبسـبب جهـود الأخير في حـثّ والن على ضـرورة البحث العميق في دين الإسـلام ودراسـة مبادئه وجوهره وركائزه ومقاصد شريعته، وضـرورة زيارة البلـدان العربية للاطلاع عن كثـب ومعاينة الحقائق، كل هذا كان سـببًا في اعتناق والن للإسـلام وحجه إلى البيـت الحرام، وخدمة دين الحـق والتعريـف به وبحضارتـه الزاهية، وأصبـح اسمه «الحـاج عبدالولى»[2]، وكان من روّاد الجزيرة العربية في القرن التاسـع عشر، وساح في مصر وسوريا زمنًا طويلا[3]، ودار بينه وبين أستاذه عدة رسائل جمعها والن وطبعها مترجمة إلى اللغـة الأسـوجية، كمـا أن هناك مجموعـة أخرى مخطوطـة في مكتبة جامعة هلسنكي Helsinki، والتي أصبحت فيما بعد تعرف بـ "هلسينجفور" Helsingfors عاصمة فنلندا[4].

ومـن تلاميذ الشـيخ الطنطـاوي أنطوني موخلينسـكي الـذي قرأ عليه جملة من الكتب العربية واللطائف الأدبية، ومنها ديوان عبدالرحمن الصفتي، وكذا المستشرق نافروتسكي Navrotsky، وكروكاس[5]، ونقولا موخين Mukhin Nicola وكيل القنصلية الروسية، وورودلف فرين Fren Rudolf ابن المستشرق الروسي فرين، وبسببهما سافر الطنطاوي إلى روسيا عام ١٨٤٠[6].

---

(١) عبدالموجود عبدالحافظ، مرجع سابق، ص ١٩٤.

(٢) عبدالرحيم مرون الوهابي، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٣) محمد عبدالغني حسن، مرجع سابق، ص٢٧٩.

(٤) عبدالموجود عبدالحافظ، مرجع سابق، ص ١٩٤.

(٥) حسـين على محفوظ، الشـيخ محمد عيَّاد الطنطاوي، معلم اللغة العربية، العربي الأول في أوربا، مجلة كلية الآداب، بغداد، نيسان ١٩٤٤، العدد ٧ ، ص ٨٣.

(٦) محمـد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سـابق، ص ٩٥٦؛ محمد صبري الدالي، في تطور رؤية الأنا للآخر (روسـيا الحديثة في الكتابات التاريخية المصريـة ١٥١٧– ١٩١٧، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ١٤٨.

أما موخين فتخرج في كلية التاريخ والآداب الشرقية في جامعة بطرسبرج، وعمل في القسم التعليمي التابع لوزارة الخارجية الروسية، وعُين مترجمًا في القنصلية العامة الروسية في مصر عام ١٨٣٥، ويقول عنه الطنطاوي «هذا الترجمان صاحبي في مصر خلال عدة أعوام وقرأ عليَ شيئًا من المعلقات وأخبار شعرائها، وله دراية بكثير من اللغات كالفرنسية والتركية»، وقد كُلِّف موخين باصطحاب الطنطاوي من إسطنبول إلى روسيا، و «فرين» هذا ورث الاستشراق عن أبيه وأمد المتحف الآسيوي بروسيا بالعديد من المخطوطات والنقود القديمة[١].

ومن تلاميذ الطنطاوي في الأزهر: يوسف الأسير السوري (١٨٨٩م)، وإبراهيم مرزوق (١٨٨٦م) وعبدالهادي نجا الأبياري[٢].

رابعًا ـ مؤلفاته

يُعد الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي من أعلام النهضة الأدبية في القرن التاسع عشر للطريقة التي انتهجها في التدريس بالأزهر؛ إذ اتجه إلى دروس الشعر والأدب واللغة، لذا عدّه بعضهم من النحويين؛ لأنه ترك بعض الكتب المخطوطة في اللغة العربية مثل كتاب: «حاشية على متن الزنجاني في الصرف»، والمشهور بمتن العُزي، كتبها بخط يده، و «حاشية على شرح الشيخ خالد الأزهري على متنه المسمى بالأزهرية في علم النحو»، كتبها بخط يده عام ١٢٥٢هـ، و «حاشية على كتاب الكافي في علمي العروض والقوافي»[٣]، و «ختم على شرح القطر لابن هشام»[٤].

بالإضافة إلى «غنية المريد في علم التوحيد» نظمًا، و»حاشية على شرح العلاّمة برهان الدين أبي المعالي إبراهيم السقا « أحد شيوخه» على منظومة

(١) محمد أبو بكر، مرجع سابق، ص ١٤.
(٢) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق،ص ٩٥٥.
(٣) عبدالموجود عبدالحافظ، مرجع سابق، ص ص ١٩٤،١٩٣؛ انظر أيضًا: أحمد تيمور، مرجع سابق، ص ٣٨٨.
(٤) جريجوري شرباتوف، مرجع سابق، ص ٧٢.

السيد محمد بُليحة»، وعنوان الشرح « التحفة السنية في العقائد السنُيَة»، ومنها : «حاشية على رسالة شيخه إبراهيم البيجوري في العقائد»، ومنها: «حاشية على منظومة الشيخ السلموني»، وفيها التزم السجع في جميع جمله[1].

ومن مؤلفاته أيضًا: تاريخ حياته بقلمه، ولم ينجز منه إلا قطعة صغيرة نشر أصلها العربي ومعه ترجمة ألمانية، و «أحسن النخب في معرفة لسان العرب»، وهو كتاب في العامية المصرية، طبع ليبسك عام ١٨٤٨، ويتضمن هذا الكتاب ألفاظ وجمل ورسائل قصص وأغان مصرية عامية، ومعها ترجمتها الفرنسية، و «منتهى الآداب في الجبر والميراث والحساب»، توجد نسخة بخط المؤلف في مكتبة جامعة بتروغراد (رقم ٨٢٠) كتبت سنة ١٢٤٥هجرية»، و «منظومة في البيان نظم فيها متن السمرقندية»، وكتاب عن تاريخ روسيا باسم «تحفة الأذكيا في أخبار بلاد روسيا عام ١٨٥٠»[2].

وهناك نوع آخر من مؤلفات الشيخ الطنطاوي متصل أساسًا بالدراسات اللغوية والأدبية والتاريخية، والتي تخضع لاهتمامات الاستشراق آنذاك كدراسة اللهجات العربية والحكايات والأمثال الشعبية، ونذكر من بين هذه المؤلفات على الخصوص:

- حال الأعياد والمواسم في مصر – مخطوط مكتبة بتروغراد.
- كتاب الحكايات المصرية العامية" – مخطوط مكتبة بتروغراد "رقم ٧٤٥")، ومعها ترجمة الباب الأول من كتاب "كلستان" لسعدي الشاعر الفارسي.
- التحيات المعتادة في كلام العامة.
- مجموعة أمثال عربية مصحوبة بترجمتها الروسية.

---

(١) أحمد تيمور، مرجع سابق، ص ٣٨٨؛ انظر أيضًا: اغناطيوس كراتشقوفسكي، مرجع سابق، ص ٤٢٦.

(٢) زكريا الرفاعي، مرجع سابق، ص ص ١٤٥، ١٤٦، : اغناطيوس كراتشقوفسكي، مرجع سابق، ص ٤٢٥.

- قواعد اللغة العربية العامية (المصرية)[1].

ولطنطاوي كتاب عنوانه «النحو العربي» أو «قواعد اللغة العربية الفصحى»، وهو أول كتاب كتبه كاتب عربي باللغة العربية للتدريس في جامعات روسيا ومعاهدها العالية، وهو موضع اهتمام المستشرقين، ونال شهرة كبيرة في كل دوائر الاستشراق الأوروبي[2]، وكانت مقالاته تنشر على صفحات بعض المجلات الاستشراقية مثل:

- Journal Asiatique
- Bulletin historique et philologique
- Melanges Asiatique[3]

خامسًا ـ وفاته:

في سبتمبر عام ١٨٥٥ أُصيب الشيخ الطنطاوي بشلل في رجليه، وظل في صراع طويل مع هذا المرض، وظل في منزله رهين المرض، وكان يشرف على العناية بالشيخ زوجته المصرية «أم حسن» التي أنجبت له طفلاً في ١٩ مايو ١٨٥٠، أسماه «أحمد»[4].

وبينما المرض يشتدّ على الشيخ طنطاوي توفيت زوجته المصرية عام ١٨٦٠، وابنه في سن العاشرة، ووقتئذ طلب الشيخ طنطاوي التحاق ابنه أحمد بإحدى المدارس الوسطى، على حساب الدولة، وبالفعل التحق أحمد بإحدى المدارس في ١٩ نوفمبر ١٨٦٠ ، ولكن الحالة الصحية للشيخ ازدادت سوءًا فأحيل للتقاعد في ١٩ يناير ١٨٦١، ثم وافاه الأجل في يوم الثلاثاء ٢٤ ربيع الثاني ١٢٧٨هـ ـ ٢٩ أكتوبر ١٨٦١، ووري جثمانه الثرى في مقبرة المسلمين بقرية فولكوفا في سانت بطرسبرج بجوار مقبرة زوجته المصرية، وتسمى المقابر التي دفن في وسطها مقبرة التتر، ومن ثمّ عين نفروتسكي خلفًا له في كرسي اللغة العربية بالجامعة، وصرفت الدولة معاش الشيخ إلى ابنه أحمد، واختير نفروتسكي وصيًا له، وفي عام ١٨٧١ باع أحمد مجموعة والده الخطية إلى

(١) عبدالرحيم العطاوي، مرجع سابق، ص ٢٢٢.
(٢) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٨.
(٣) عبدالرحيم العطاوي، مرجع سابق، ص ٢٢٣.
(٤) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق،ص ٩٥٧.

مكتبة الجامعة[1].

هكذا كان محمد عياد الطنطاوي وكثير من جيله نموذجًا عمليًا للعلاقة مع الآخر دون تنظير أو صخب نظري لا طائل من ورائه ، وما زال تراثهم وهو على وجه خاص في حاجة إلى إعادة لملمته من مكتبات العالم.

سادسًا ـ وصف المخطوط :

بعد تناولنا لنشأة وحياة الشيخ الطنطاوي وسفره إلى روسيا وأساتذته وتلاميذه ووفاته، ننتقل إلى إعطاء نبذة مبسطة عن مخطوط[*] « تحفة الأذكيا بأخبار مملكة الروسيا»، والذي جاء أوله : «بسم الله الرحمن الرحيم.... حمدًا لمن سيَّر سيرة العالم في أقصى أقطار العالَم وقيض له أعوانًا يعضدونه وأنصارًا يحمونه وصلاةً وسلامًا على سيدنا محمد من جفاه أهل بلده ووده الغرباء....إلخ».

ثم ذكر عنوان المخطوط الذي نحن بصدده عندما قال: «وعند إبرام العزم على الظعن إلى هذا القطر الحسن، سألني جمع من الأصدقاء والمعارف، وجمّ من أهل المعارف أن أسطر في سفري هذا كتابًا، أودع فيه ما يَعذُب مذاقًا، ويطيب شرابًا من بدائع البلاد، وغرائب العباد مع شذرة علمية، ونكات أدبية، وطُرف استحسانية، ومُلَح اختراعية، فأجبت السؤال، وبادرت بالامتثال، فشرعت في هذا التعليق البديع الأنيق، وسميته «تحفة الأذكيا بأخبار مملكة الروسيا».

وختم الطنطاوي مخطوطه بقوله: « والله أسأل وبنبيه أتوسل أن يكون هذا التعليق مقبولاً عند السدة العلية، والعتبة العثمانية، وأن ينظر إليه العلماء الأعلام بعين الإنصاف، وأن يحودوا عن سبيل الاعتساف فما قصدي إلا التبصير ولا مرامي التذكير . إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

---

(١) محمد عبدالمنعم خفاجي، مرجع سابق، ص ٩٥٧، انظر أيضًا: حسين على محفوظ، مرجع سابق، ص ٨٣.

(*) المخطوط قدم صورته لنا الدكتور حسين الشافعي، رئيس المؤسسة المصرية الروسية للثقافة والعلوم، والذي عمل على جمع تراث الشيخ محمد عياد الطنطاوي إلكترونياً، وقدمه للمهتمين .

اسم الناسخ : مصنفه الفقير محمد عياد المصري الطنطاوي .

عدد الأوراق : النسخة تبدأ من اللوحة ١ وتنتهي عند اللوحة ١٠٩.

مقاس اللوحة : ١٧ ×٢٥ .

الخط : نسخ واضح .

تاريخ النسخ : أوائل شهر ربيع الأول سنة ١٢٦٦هـ/ أوائل كانون الثاني سنة ١٨٥٠م .

حالة النسخة: لا بأس بها، وفي ركن كل صفحة تعقيبة تدل على ترتيب الصفحات وتسلسلها، وليس على صفحاتها ترقيم.

مكان المخطوط: مجموعة كراتشكوفسكي بالمكتبة الشرقية بلننجراد تم إعادة أرشفتها في ١٩٢٨/١٢/٢٧،الخزانة رقم ٤٧، تحت رقم ١٧، محمد بن عياد الطنطاوي، أستاذ اللغة العربية بجامعة بيتربورغ، وصف روسيا، ١٨٥٠، بيتربورغ، من مجموعة الأكاديمي يو. كراتشكوفسكي، إعادة طبع ١٩٧٤).

الترقيم القديم للمخطوطة (٣٢ ، ١ ، ٢).

يقول جريجوري شرباتوف: هناك بعض المخطوطات الفريدة للشيخ الطنطاوي نذكر منها النسخة الأصلية لأهم آثاره الأدبية تحت عنوان «تحفة الأذكيا بأخبار مملكة الروسيا»، وتقع في ١١٢ ورقة[١]، ويذكر أ.د. محمد صبري الدالي (أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر – جامعة حلوان) بأن هذه النسخة موجودة في مكتبة جامعة بطرسبرج[٢]، وهي النسخة التي نحن بصددها، وهي بخط المصنف؛ لذا قمنا بإعداد تحقيق لها ودراسة مفصلة عن حياة ونشأة الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي، ومن الجدير بالذكر أن هذه النسخة تمّ الحصول عليها من د. حسين الشافعي (رئيس المؤسسة المصرية الروسية للثقافة والعلوم، و رئيس مجلس إدارة دار أنباء روسيا)، وله يرجع الفضل الأكبر في بعث سيرة الشيخ محمد عياد الطنطاوي، إذ جمع تراثه ومخطوطاته جميعاً وأهداها للباحثين ولمراكز الدراسات العربية،

(١) جريجوري شرباتوف، مرجع سابق، ص ٧١.

(٢) محمد صبري الدالي، مرجع سابق، ص ١٥٠.

كما نظم إحتفالاً دولياً في سبتمبر ٢٠١٣ بالقاهرة بالتعاون مع مركز تاريخ مصر المعاصر شارك فيه باحثين من مصر ودولٍ عربية، ومن روسيا. أعاد الدكتور حسين الشافعي لبلد نجريج بمحافظة الغربية فضل المنشأ للشيخ عياد الطنطاوي فنظم في القرية في مارس ٢٠١٦ إحتفالاً مهيباً شارك فيه الآلاف من أهالي القرية، ووفد إليها من القاهرة ومن روسيا جمعُ غفير أزيح فيه الستار عن تمثال مهيب للشيخ محمد عياد الطنطاوي، كما أصدر الدكتور حسين الشافعي عن حياة الشيخ عياد الطنطاوي وأعماله كتابين هامين: (مخطوطة تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا، إصدار ٢٠١٧، الشيخ محمد عياد الطنطاوي أول معلم للعربية بالبلاد الروسية، إصدار ٢٠١٣).

والكتاب الأخير تم إصدار طبعة ثانية منه في ٢٠١٧.

ويستكمل شرباتوف قوله بأن النسخة الثانية المبيّضة من المخطوط سالف الذكر تحفظ في إستانبول في مسجد رضا باشا في رميلي خصار، وتقع في ١٩٣ ورقة[١]، وقد أرسلها الشيخ عيّاد الطنطاوي للسلطان عبدالمجيد الأول[٢]، وهي النسخة التي قدّم لها وحررها د. محمد عيسى صالحية[٣]، ولكن لم أستطع الحصول على النسخة الأصلية لنسخة إستانبول، ومن خلال الاطلاع على النسخة المطبوعة لها، وجدت هناك اختلافات عن النسخة الأصلية التي نحن بصددها، فعلى سبيل المثال، حملت نسخة إستانبول عنوان: «تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا»، وقد وضع د. عيسى صالحية صورة أصلية من الغلاف الخارجي للمخطوط، في حين جاء عنوان النسخة الأصلية «بيتربورغ» عنوان: «تحفة الأذكياء بأخبار مملكة الروسيا»، إضافة إلى وجود اختلافات داخل المخطوط نفسه.

---

(١) جريجوري شرباتوف،مرجع سابق، ص ٧١.

(٢) محمد صبري الدالي، مرجع سابق، ص ١٥٠.

(٣) محمد عيّاد الطنطاوي، رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية ١٨٤٠-١٨٥٠، والمسماه بتحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا، قدّم لها وحرّرها د. محمد عيسى صالحية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢.

ويعتبر المخطوط من أهم مؤلفاته، وهو كتاب يجمع بين فن الرحلات والسيرة الذاتية، وإلى جانب تناول الكتاب لرحلة الطنطاوي من مصر إلى روسيا، ووصف رحلاته في روسيا وفي دول البلطيق وفنلندا ومن حولها خلال فترة إقامته في روسيا، ويتناول الكتاب وصفًا لجغرافية روسيا وتاريخها وملامح الحياة الاجتماعية والثقافية والعادات والتقاليد السائدة في روسيا، أي دراسة مفصلة لتاريخ روسيا الحديث، وفي الوقت نفسه لم يكن المخطوط سردًا تاريخيًا أو جغرافيًا بل كان وصفًا دقيقًا حيًا بيئيًا لرحلته من القاهرة إلى بطرسبرج وزياراته لأقاليم روسيا وانفعالاته مع الإقليم والشعب فيها خلال إقامته طيلة العشر سنوات التي قضاها هناك منذ هجرته عام ١٨٤٠ حتى تاريخ تأليف الكتاب عام ١٨٥٠.

والمخطوط عبارة عن وصف لرحلة الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي التي بدأت في ٢٦ مارس ١٨٤٠ من القاهرة حتى وصوله إلى بتربورج في ٣٠ مارس ١٨٤٠ غطت ٢٧ ورقة (٥٤ لوحة) من الكتاب، ثم ثلاثة أبواب اتصل الأول منها بمنشأ الروس وأصل ولاية نوفغورد Novgord، وأصل ولاية كييف Kiev، والباب الثاني يتناول تاريخ بتربورغ الطبوغرافي والاثنوغرافي والطبيعي والبشري، فكان دراسة تاريخية، جغرافية جيولوجية، وقد جعل في الباب الثاني ثلاثة فصول ركزت على حياة بطرس الأكبر وإنجازاته وإصلاحاته، ودوره في نهضة روسيا وتقدمها في كافة المجالات السياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية، ثم عرضًا للأحوال السياسية والعسكرية والاجتماعية في بتربورغ خصوصًا وروسيا عامة في عهد خلفاء بطرس الأكبر، متناولاً إنجازات كل قيصر في العمارة والإنشاءات والتنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

وأما الباب الثالث فتناول عادات الروس وأخلاقهم وملابسهم ودينهم وعادات الزواج والتعميد والدفن ومراسم الولادة وأعيادهم والتنظيمات الاجتماعية وأديانهم وخطوطهم وتقدمهم في العلوم والفنون وغير ذلك، واختتم الباب بتناول اللغة الروسية وقواعدها وكيفية الترجمة منها وإليها.

لغة المؤلف :

من المتعارف عليه أن سمة التأليف في مصر بداية من العصر الأيوبي وصولاً للعصر العثماني كانت تعتمد بشكل قوي على اللغة العامية المصرية، وهي صفة يتسم بها الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي، حيث اعتمد في مخطوطه هذا على اللغة العامية نتيجة تأثره بسمة هذه العصور في التأليف.

وكانت أبرز الظواهر الإملائية المتبعة في الرسم الذي جرت عليه المخطوطة، مخالفة المصنف في كتابة الأعلام للشائع المألوف على سبيل المثال: يرسم (أمريكا) هكذا (أمريقا)، و(موسكو) هكذا (موسقو)، و(باريس) هكذا (باريز)... إلخ.

استعمال اللهجة العامية مع عدم مراعاة القواعد النحوية والإملائية في بعض الكلمات، واشتهر بتبديل بعض الحروف في بعض الكلمات على سبيل المثال: تبديل حرف الطاء بدلاً من التاء كما في كلمة (فستان) رسمها هكذا (فسطان)، وتبديل حرف الصاد بدلاً من السين كما في كلمة (بوسطة) رسمها هكذا (بوصطة)، بالإضافة إلى تسهيل وإهمال الهمزة المطرفة، مثل: الفقرا، الوزرا، الشتا،.... إلخ.

أيضًا مخالفة المصنف في كتابة أسماء الشهور للشائع المألوف مثل: كتابة مارس هكذا (مرس)، وكتابة سبتمبر هكذا (سنتابر)... إلخ.

منهج التحقيق :

- شرت في سياق النص إلى كل صفحة (وليست كل ورقة) من صفحات النسخة المخطوطة ، وذلك حتى يرتبط النص المحقق بأصوله الخطية، وتسهل مراجعة النسخة عند الضرورة.
- كتبت النص حسب الرسم الإملائي المعاصر مع العناية بعلامات الترقيم.

- تخريج ما في المخطوط من أبيات شعرية.
- قمت بتوضيح بعض المصطلحات والألفاظ الغامضة.
- عزوت الآيات القرآنية إلى السور مع ذكر أرقامها.
- ترجمة مختصرة للأعلام - دون المشهور منهم - الوارد ذكرهم في الكتاب،تشتمل على الاسم والنسب والشهرة وتاريخ الوفاة، مع ذكر مصادر الترجمة.
- ذيلت الكتاب بقائمة مصادر ومراجع التحقيق.

وبالله التوفيق،،،

د. علي متولي أحمد
باحث في مركز تاريخ مصر المعاصر
دار الكتب المصرية

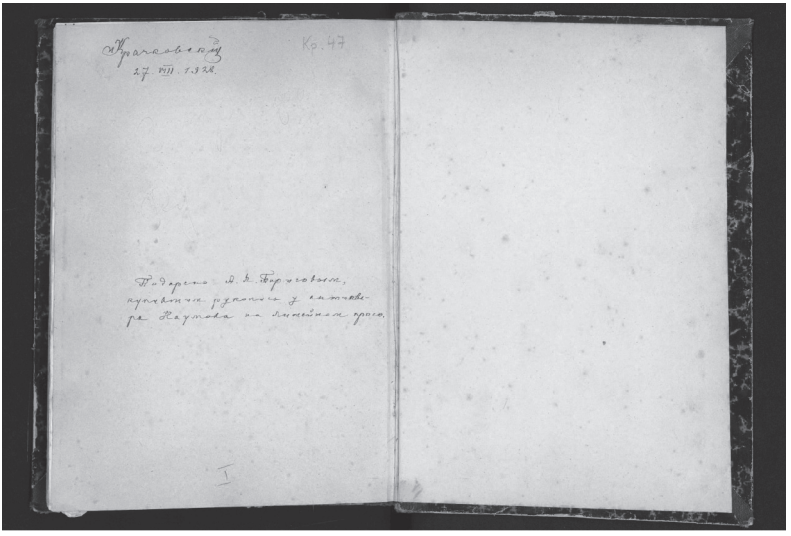

صورة من غلاف المخطوط

صورة من اللوحة الأولى من المخطوط

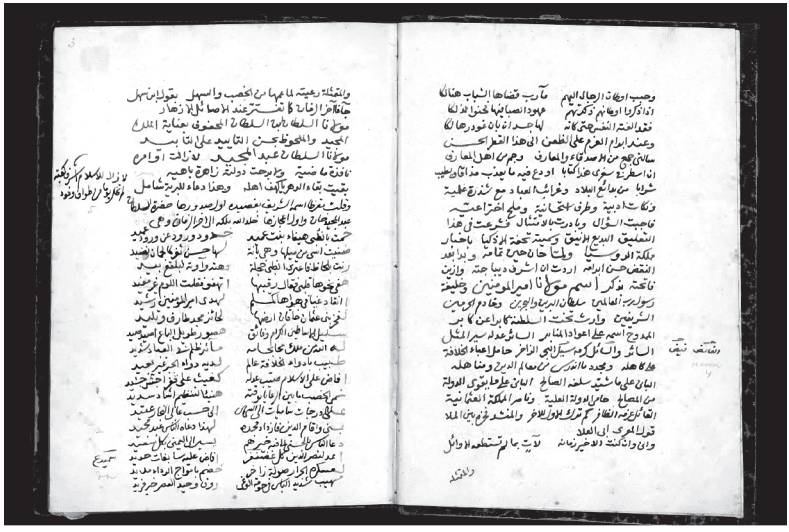

صورة من اللوحة الثانية من المخطوط وبها عنوان المخطوط.

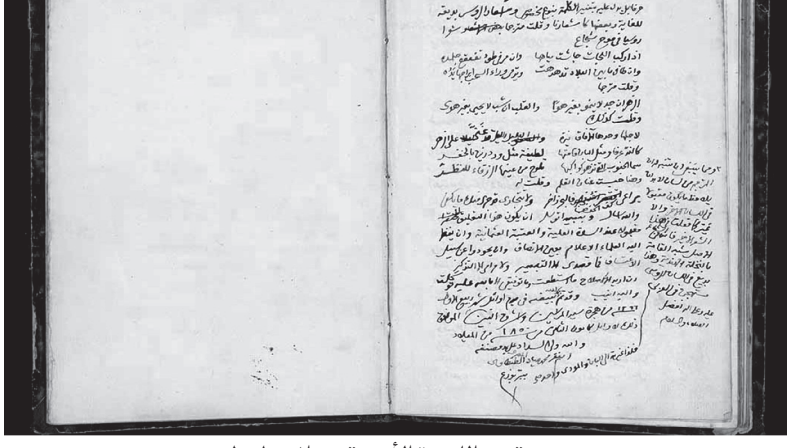

صورة من اللوحة الأخيرة من المخطوط.

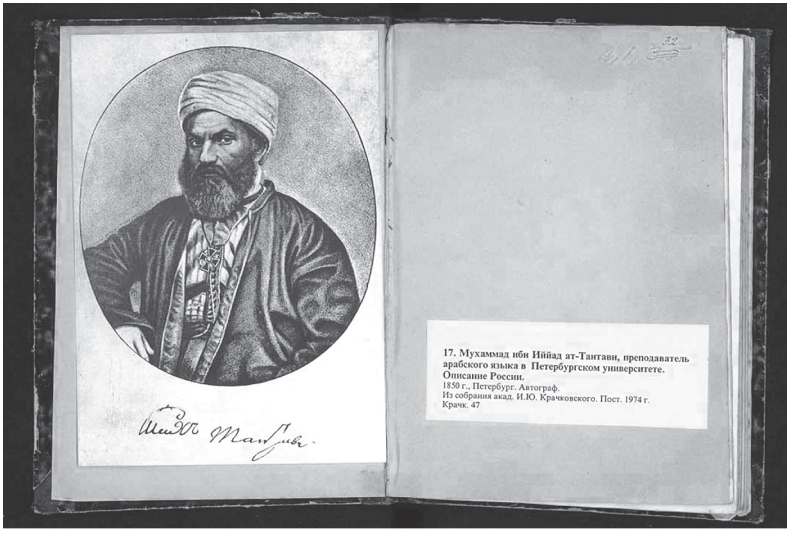

صورة توضح مكان المخطوط في المكتبة الشرقية ببطرسبرج.

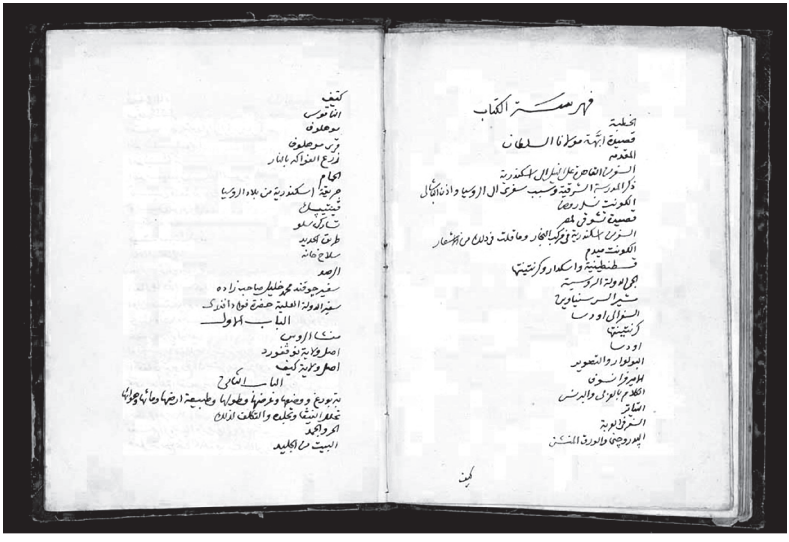

صورة من الصفحة الأولى من فهرسة الكتاب.

[١/ظ] بسم الله الرحمن الرحيم

حمدًا لمن سيَّر سيرة العالِم في أقصى أقطار العالَم، وقيّض له أعوانًا يعضدونه وأنصارًا يحمونه، وصلاة وسلامًا على سيدنا محمد من جفاه أهل بلده، ووده الغرباء، فهاجر هجرة طيبة إلى المدينة الغراء، وعلى آله المهاجرين والأنصار، آناء الليل وأطراف النهار.

أما بعد؛ فيقول محمد بن سعد عياد – أجراه الله على مناهج الرشاد-: العلم رأس مال الأكياس، والجهل لكل ضرر أساس، والعلم لا حدَّ له ولا نهاية، وبحره لا سيف له ولا غاية، والمشتغل به كل يوم يدرك جديدًا ويستنبط بديعًا فريدًا[١]:

ما حوى العلم جميعًا رجل ... لا ولو مارسه ألف سنة
إنَّما العلم بعيدًا نيله ... فخذوا من كل شيء أحسنه

ويزداد بالسَّفار، وجَوْب البراري والبحار، ومعاشرة أجناس العالم الشاسعة البلاد، والنظر فيما أبدعوه من البدائع التي ليس لها نفاد، وأما من لازم وطنه، ولم يفك من أصر الدار رسنه، فقد عاش كالصغير الذي يبكي لفراق الحجر، وكان ضيّق العطن، قليل الحجر، كما قلت حين سافرت:

ومن لم يغترب في كل قطر ... فكالطفل الذي في حِجر أمّه
تراه ساذجًا لا عِلمَ يدري ... ويبكي حيث فارقها لهمَّه

فلهذا رغب عقلاء الأمم على اختلاف أجناسهم في السفر، ولم يبالوا لفرط نفعه بما فيه من الخطر، وقد كان ذلك ديدن الأفاضل ودأب الأماثل، وانظر

(١) منسوب للإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عند: الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، تحقيق: عبدالفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، ط٢، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٦٥.

أيها اللبيب الماهر لتمثل العلامة الثاني السعد التفتازاني[1]، بقول الشاعر: [البسيط]

[٢/و] يومًا [2] بجِزْوَى ويومًا بالعقيق وبالعُذيْب يومًا ويومًا بالخُلَيْصاء

ولقول الحريري[3]:

أنــا فــي العَالــم مُثْلــهْ ولأهــل العِلــمْ قبلــه
غَيــرَ أنــي كُــلَّ يَــوْم بِيــن تعــرْيس وَرحْلــه[4]
وغــريبُ الــدَّار لــوْ حــلّ بطُوبــى لــمْ تَــطِبْ لــه

ولقول أبي الطيب، أحمد بن عبد العزيز المقدسي[5]: [الكامل]

يا واقفــًا [1] بيــن الفُــراتِ ودِجْلةٍ عطْشــان يطلــبُ شَرْبــةً من ماءِ
إن البِــلادَ كثيــرةٌ أنهارُهــا وسَحَابُهــا فغزيــرة الأنــواءِ
ما اختلتِ الدنيا ولا عــُدم النــدى فيهــا ولا ضــاقتْ على العلمــاءِ
أرضُ بــأرضٍ والذي خلــقَ الـورى قــد قسَّــم الأرزاقَ فــي الأحياءِ

---

(١) هو: مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، سعد الدين. توفي سنة ٧٩١هـ. ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٤، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣، ص ٣٥٠؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق: د. حسن حبشي، ج١، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩، ص ص ٣٨٩-٣٩٠، وسماه فيه محمود ولعله سهو؛ وجلال الدين السيوطي؛ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، (تحقيق) محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٢، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٦٤، ص ٢٨٥؛ وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (تحقيق) عبدالقادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ج٨، دار ابن كثير، ط١، دمشق - بيروت، يناير ١٩٨٦، ص ص ٥٤٧- ٥٥٠.

(٢) ورد البيت عند الثعالبي منسوبًا لأبو محمد بن أحمد الخازن في: الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد محمد قميحة، ج ٣، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٢٨. ضمن أخبار الصاحب إسماعيل بن عباد.

(٣) الحريري: مقامات الحريري، المقامات الطيبية، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٨٣.

(٤) التعريس: هو النزول آخر الليل، رحله: أي ارتحال. انظر: الحريري، نفس المصدر.

(٥) هو: أحمد بن عبد العزيز بن محمد بن حبيب السلمي، أبو الطيب المقدسي، اختلفت المصادر حول سنة وفاته، فقيل ٥٢٩هـ، وقيل ٥٣١ هـ. والأبيات عند: ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر ١٩٨٨، ص ٩٨٨- ٩٩١؛ والذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، (تحقيق): بشار عواد معروف، ج ١١، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٤٨٢؛ و الصفدي: الوافي بالوفيات، (تحقيق): جماعة من العلماء، ج ٧، دار النشر فرانز شتايز شتوتغارت (النشرات الإسلامية)، ١٩٦٢. ٢٠٠٤، ص ٧٢.

وقد أتاح الله لي السفر إلى بلاد الروسيا الواسعة، وأقطارها البعيدة الشَّاسعة، بسبب طلب دولتها لي أُعلِّمُ اللغة العربية في مدرسة الألسن الشرقية، فوافق ذلك ما عندي من الميل الحسن، وسرت لا ألوي على أهل ولا وطن، والعاقل أينما سار مع سكنه، والجاهل غريب في وطنه وما عاقل في بلدة بغريب.

هذا مع شغف النفس بالأوطان وتأسفها على فراق الأهل والخِلاّن قال الأدباء: كان الناس يتشوقون إلى أوطانهم، ولا يفهمون العلة في ذلك إلى أن أوضحها ابن الرومي في قصيدته لسليمان بن عبدالله، يستعديه على رجل من التجار يعرف بابن أبي كامل، جبره على بيع داره واغتصبه بعض حدودها، فقال[٢]: [الطويل]

ولي وَطَنٌ آليت ألا أبيعَهُ	وأن لا أرى لغيره الدهر[٣] مالكا
عهْدتُ به شرخَ الشباب ونعمةً	كنعمة قوم أصبحوا في ظِلالكا
[2/ظ] وحبّبَ أوطانَ الرجالِ إليهمُ	مآربُ قضّاها الشبابُ هنالكا
إذا ذكروا أوطانهمُ ذكرتْهمُ	عُهُودَ الصّبا فيها فَحنُّوا لذلكا
فقد ألِفَتْهُ النفسُ حتى كأنه	لها جسدٌ إن بان غُودِرَ[٤] هالكا

وعند إبرام العزم على الظعن إلى هذا القطر الحسن، سألني جمع من الأصدقاء والمعارف، وجمّ من أهل المعارف أن أسطر في سفري هذا كتابًا، أودع فيه ما يَعذُب مذاقًا، ويطيب شرابًا من بدائع البلاد، وغرائب العباد مع شذرة علمية، ونكات أدبية، وطُرف استحسانية، ومُلَح اختراعية، فأجبت السؤال، وبادرت بالامتثال، فشرعت في هذا التعليق البديع الأنيق، وسميته «تحفة الأذكيا بأخبار مملكة الروسيا»، ولما حان حين تمامه، وبدا بعد النقص حسن إبرامه، أردت أن أشرف ديباجته، وأزين فاتحته بذِكر اسم مولانا أمير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين، سلطان البرين والبحرين، وخادم الحرمين الشريفين، وارث تخت السَّلطنة كابرًا عن كابر، الممدوح اسمه

(١) بغية الطلب : يا واقعًا.

(٢) انظر ديوان ابن الرومي ، ط٣، دار الكتب المصرية ، ٢٠٠٣، ص ص١٨٢٥- ١٨٢٦. مع اختلاف ترتيب الأبيات.

(٣) الديوان: وألا أرى غيري له الدهر.

(٤) الديوان: غودرت.

علـى أعـواد المنابـر، السَّـائر عدله سـير المثل السَّـائر، والفائـض كرمه فيض البحـر الزاخر، حامـل أعباء الخلافة علـى كاهله، ومجدد ما انـدرس من معالم الدين ومناهله، الباني على ما شـيد سلفه الصالح، الباني على ما يقوي الدولة مـن المصالح، حامي الدولـة العلية، وناصـر المملكة العثمانيـة، القائل عزمه الظافـر، كم ترك الأول للآخر، والمنشـد فخره بين الملأ، قـول المعري أبي العلا(1) : [الطويـل]

وَإنِّي وَإنْ كُنْتُ الأَخِيـرَ زَمَانُـــــهُ   لآتٍ بمــَا لمْ تَسْتَطِعْـــهُ الأَوَائِـلُ

[٣/و] والمتمثله رعيته لما عمّها من الخصب والسهل، بقول ابن سهل(2) :

جــاءنا آخـر الزمان كمـا تفـ   ـتـرُ عنـــد الأصائـــل الأزهار

مولانا السَّلطان ابن السَّلطان المحفوف بعناية الملك المجيد، والملحوظ بحسن التأييد على التأبيد مولانا السَّلطان عبد المجيد(3) :

لازال للإسـلام أشـرف كعبة   لم تخـل يومًـا من طواف وفود

---

(١) أبو العلاء المعري: سقط الزند، بيروت، دار صادر ، ١٩٥٧، ص ١٩٣.

(٢) هو: إبراهيم بن سـهل الأندلسي الأشـبيلي، اختلفت الروايات حول تاريخ وفاته والأشهر سنة ٦٤٩هـ. ابن سـعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شـوقي ضيف ج١، ط٤ دار المعارف، القاهرة، ص ص ٢٦٩-٢٧٠؛ والذهبي، تاريخ الإسـلام، مصدر سابق، ج ١٤، ص ٩١١؛ والصفدي: الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج٦، ص ص ٥-١١، والأبيات في: ديوان ابن سهل الأشبيلي، تحقيق: أحمد حسنين القرني، المكتبة العربية، مصر، ١٩٢٦، ص ٤٨.

(٣) السـلطان عبد المجيد: الابن الأكبر للسلطان محمود الثاني، ولد في ١٤ شعبان ١٢٣٧هـ/٦ مايو ١٨٢٢م، تولى الخلافة، ولم يبلغ الثامنة عشرة من عمره، وكانت الدولة في غاية الاضطراب بسـبب انتصارات جيوش محمد علي باشا والي مصر ودخولها إلى الأناضول، فتدخلت الدول الأوربيـة عندئـذ وأجبرت والي مصر علـى توقيع معاهدة ١٨٤٠، وتولـى الحكم في ٢ يوليه ١٨٣٩، وقـد قـام بالعديد من الإصلاحات لتنظيـم الدولة العثمانية فأصـدر فرمان الكلخانة ١٨٣٩م، ثـم الإصلاحات الخيريـة ١٨٥٦م، وقيام حرب القـرم (١٨٥٣-١٨٥٦م) ضد الروسيا والتي انتهت بتوقيع معاهدة باريس ١٨٥٦، توفي في يونية ١٨٦١.لمزيد من التفاصيل انظر: محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: د. إحسـان حقي، ط١، دار النفـاس، بيـروت، ١٩٨١، ص ٤٥٥-٥٢٩؛ أحمـد آق كوندز، سـعيد أوزتوك، الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، إستانبول، ٢٠٠٨، ص ٣٩٧.

لازالت أوامره نافذة ماضية ولا برحت دولته زاهرة باهيه:

بقيت بقـــاء الدهــــر ياكهـف أهلـــه وهـــذا دعـــاء للبريـــة شامـــل

وقلت مقرظًا اسمه الشِّريف بقصيدة أول صدورها حضرة السَّلطان عبد المجيد خان، وأوّل أعجازها خلَّد اللّه ملكها إلى آخر الزمان، وهي:

حمت بالظبي هيفاء بنت عيد   خدود ورود عن ورود عيد
ضنيت أسىً من ميلها وهي بانة   لها حسن ثغر كالجمان نضيد
رنت بلحاظ فاعترى الظبي خجله   دهته وآوته لبلقع بيد
هفا نحوها قلبي فقال رقيبها   أتهفو فقلت اللوم غير مفيد
أأنقاد غيًا في هواها كمسلم   لهدي أمير المؤمنين رشيد
لفخر بني عثمان خاقان أرضها   لحائز مجدٍ طارفٍ وتليد
سليل الأساطين الكرام وفائق   هصور طويل الباع أصيد صيد
له اللّه من ملكٍ محا بحسامه   مآثر ظلم في العباد شديد
طبيب بأدواء الخلافة عالم   لديه دواء الجبر غير بعيد
أفاض على الإسلام صيّب عدله   كغيث على قفرا جس جيد
نمى الخصب ما بين الرعايا بوقته   هنيئًا لتنظيم أشاد سديد
علا درجات ساميات إلى السهى   إلى حسب عالي النجار عتيد
بنى وأقام الدين فازداد مجده   لهذا دعاه الناس عبد مجيد
دعا الناس بالحسنى لما فيه خيرهم   يسير إلى اليمين بكل سعيد
أعدّ لنصر الدين كل سميدع   أفاض عليه سابغات حديد
لعسكره الجرار صولة زاخر   خضم بأمواج الرداء مديد
مهيب شديد البأس في حومة الوغى   رؤوف وحيد العصر خير فريد
[3/ظ]جرى مدحه في عالم الأدب الذي   أتى بنظام معجز للبيد
يجود على العافي بجزل رفده   لمحسوب ذياك الحمى ووصيد
دنوت بآمالي إلى روض جنة   زهى حلا شِعري به وقصيدي
خدمت ببيت الشعر عالي بابه   مريد العلى فالباب خير عميد
أتيت إليه خاضعًا لعلوه   أخوض غمارًا أو بطيء بريد
نعمنا وللدنيا به ورعيته   نعيم فأيام الأنام كعيد

المقدمـــــة

في سفري من مصر المحروسة إلى بتربورغ المحمية، وما رأيت من البحار والجزائر، والبلاد البهية مع تحلية ذلك بما قلته من الأشعار المطربة في البدائع المستغربة، فأقول: فارقت وطني وأهلي وعيالي غروب شمس يوم السبت ٢٤ من محرم الحرام، افتتاح سنة ست وخمسين بعد الألف والمئتين من الهجرة النبوية - على صاحبها أفضل الصَّلاة - وأزكى التحية، الموافق ذلك ٢٦ مرس[1] الأفرنجي - يعني آذار - سنة ١٨٤٠ مسيحية بحساب فرنج مصر والقسطنطينية الجاري على بلاد فرانسا والنيمسا و نحوهما، وأمّا على حساب الروسيا فينقصون اثني عشر يومًا، فيكون ذلك اليوم عندهم رابع عشر مرس، ويسمى الأول الحساب الجديد، والثاني الحساب القديم، وينبني على ذلك بعض التواريخ والأعياد، كأول السَّنة وعيد الميلاد مما لا يتعلق بالقمر، أمّا ما يتعلق به كعيد الفصح، فإنه في يوم واحد عند جميع النصارى من الروس وغيرهم، ومن حيث أني أذكر في هذا الكتاب ما يتعلق بالرُوس وأخبارهم فأبني على تاريخهم، فنزلت بعد التوديع والتشييع:

وكــــان أوّل عهد العين من جَزَعِ   بالدمــــع آخر عهد القلب بالجلـــد

في صندل على ظهر النيل، يسير مع تياره الجميل، والنيل هادئ، [٤/و] والقمر هادي، والملَّاح حادي، والنوتي شادي، فهبّت بعد برهة روائع الأزهار، فاستنشقها الأنف ولها القلب استطار، فأعلمتنا أننا أمام جنينة شبرى الفائقة على البساتين قدرًا:

كهيفاء رامت تختفي في شعورها   فنمَّ عليهـــا عرفهـــا وسوارها

(١) كذا رسمها المصنف وسنورد هذا الخلاف هنا فقط.

ثم عند الصباح، تلاعب الموجُ بالزورق حتى أسقط الشراع، فأرسينا عند بلد يقال لها زاوية رزين[1] وما رزن عندها بحر النيل ولا استطاع، فقلت مواليا:

في السبت فارقت أحبابي صفاري شمس
من كل أهيف رشيق من كل بدر وشمس
نزلت صندل ظريف لأجل أن أسلي النفس
غلب عليه الهوى زيي وكُثر الريح
وعند زاوية رزين البحر هاج بالنفس

وعندما أرسلت ذلك في ضمن مكتوب إلى مصر، قال الشيخ يوسف الصيداوي مجيبًا في مكتوبه عن هذا المواليا بمواليا مثله:

فارقتنا والجوى في القلب منارس
والدمع منا انطلق والأسر راح في حبس
والعقل منا أتى له من فراقك مس
والفلك فيكم جرى والهم بي أرسى
مذ غبت عنا تحققنا مغيب الشمس

وقد ساعده الوقت على إحكام التوريه، وقوله: «والفلك فيكم جرى» معناه: إنكم بحر، وقد ينسى التشبيه كما في قول الشاعر[2]: [المتقارب]

(١) في القرن الثاني عشر وُجدت قرية قديمة تسمى شبرا لون، تسلّط النيل على مساكن هذه القرية ودمّرها، فاضطر أهلها إلى إنشاء قرية أخرى بدلا منها في أرض مرتفعة بالقرب من شاطئ النيل ، وسمّوها زاوية رزين نسبة إلى الشيخ رزين الذي كان ضريحة في ذلك الوقت بتلك الجهة. للمزيد راجع: محمد رمزي في: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد القدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م، ق٢ (البلاد الحالية)، ج٢ (مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤ ، ص ٢١٧.

(٢) هو أبو تمام حبيب بن أوس انظر: ديوان أبي تمّام الطائي(ت ٢٣١ هـ)، (فسّر ألفاظه اللغوية): محيي الدين الخيّاط، (طبع بمناظرة والتزام): محمد جمال، نظارة المعارف العمومية، نومرو ٤١٣، ص ٣٥١، والبيت في رثاء خالد بن يزيد الشيباني: انظر: الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، قدّم له، راجي الأسمر، ج٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤، ص ١٨٧.

ويصْعَدُ حتـى يظـــن [1] الجهول بـأن لـه حاجـــة [2] فـــي السـماء

[٤/ظ] ثـم سـرنا بعد هـدوء الريح قليلًا، ولا زلنا في سـير ووقـوف، وجرايان وتجديـف غـروف، حتى وصلنا بعـد اللتيا والتي ثغر سـكندرية ليلة الجمعة بعد غلق الأبواب، فلم نسـتطع الوصول إليها بسـبب من الأسباب، فقلت متغزلاً مشـيرًا لقصة زليخا مع يوسف لمّا غلّقت عليه الأبواب وقالت له : هيت لك، وهذا يسمى في علم البديع التلميح:

وافيتهـــا أزورهـــــا جـــ ـــنـــح الدياجـــي والحلك
فغلقـــت أبوابهـــــا ولـــم تقـــــل لـــــي هَيْـــتَّ لك

ثم دخلت في الصبح المدينة عند «الكونت ميدن» من أعيان دولة الروسـيا وكبرائها، وكان إذ ذاك القنصل الجنرال، والآن هو سـفير الدولة الروسية في بلاد أمريقا بعد أن كان سـفيرها في بلاد الفرس، فأقمت عنده أسبوعًا بغاية الإكـرام ووفور الاحترام، وهو الذي هيّجني حين كان في مصر على الذهاب إلى بـلاد الروسـيا، وذلـك أن الأمم منذ تقدمـت في التمدن، علمت فائـدة ارتباطها بعضها ببعض، وأنشدت قول الشاعر:

النَّـاس بالنَّـاس فـلا تنفـرد وكـن أخـا حـزم وتعييش
ما لقويّ عن ضعيف غِنى لا بدَّ للسهـــم من الريـــش

فلذلك أنشـأت مدارس للألسن الغريبة، وعلمت بعض رعاياها هذه الألسن لكـي تكون لها ترجمانـات عند الحاجات، ولقـوة الدولة الروسـيا، وكثرة ارتباطهـا بالدول الغريبة، فعلت ذلـك وتقدمت فيه على غيرها، حتى أنه يوجد فيهـا من أهل الألسـن المختلفـة ما لا يوجد في غيرهـا، وقد اعتنى وزيـر الغرباء سـعادة الكونـت [٥/و] «نسـل روض» بالألسـن الشـرقية، فأنشـأ لها مدرسـة

(١) في الديوان: لظنّ.
(٢) في الديوان: أن له منزلًا.

مخصوصة غير قانع بالمدرسة العمومية لشدة الاحتياج إلى الألسن الشرقية، ففي هذه المدرسة معلمون لهذه الألسن، لا كما في الأوروبا، بل كل لسان له معلم من أبناء جنسه، ففيها العالم الفاضل «مرزا جعفر» معلم اللسَان الفارسي، ومربي التلامذة والتراجمة الروسية، ليس فقط في هذا اللسَان بل وفي اللسَان التركي، وفيها «مسيو ديميزون» وهو وإن كان ليس مشرقيًا، لكنه تعلم هذه الألسن بكفاية بحيث أنه يتكلم بها بالسهولة.

ومن حيث إن سعادة الوزير معتن بإحياء مدرسته لا زال في كل حين يجتهد في تسهيل تعلم التلاميذ، فلهذا لما توجه جناب الكونت «ميدن» إلى الدِّيار المصرية كلَّفه بالتفتيش على معلم عربي للمدرسة، ومن حيث أني تعرفت بجنابه بواسطة «مسيو فرينل» الذي طالع معي كتبًا عربية أدبية وتاريخية، واكتسب في هذا اللسَان مهارة المعية، بسبب كثرة صحبة العرب، والمعية طلب مني الذهاب، فأجبت ومن مدة أربع سنين بالدخول في هذه المدرسة تشرفت، وبعدما رضيت استأذن لي جناب الكونت من حضرة الباشا عزيز مصر وممدنها، وحامي ذمارها ومؤمنها، فأذن لي وطلب حضوري، فذهبت عنده فأمرني بالجلوس، ثم حضني على تعلم لسان الروسيا، ووعدني بالإكرام إذا تعلمته؛ لأنه مشغوف بجلب الألسن الغريبة إلى بلاده، ولذلك ترى في مدارسها نجابة التلامذة خصوصًا في اللسان الفرنساوي، وكتب لي مرسومًا بختمه كالالتزام بما وعد، وقلت متشوقًا لمصر[٥/ظ] وأهلي فيها:

فاض جفني بماء دمع حميم ... لتنائي صحابة وحميم
حيث فارقت غير قال دياري ... ومباني علومها والفهوم
حيث نيطت عمائمي وألمت ... بي ثياب الصبا وبرد النعيم
تعتريني الخطوب منكدرات ... تتوالي وتارة في نجوم
ولثغر الإسكندرية يممت ... لطرد النعا وصرف الهموم
بلد أهله حماة ذمار ... لم يكونوا كمثل ذا من قديم
ودعاني عزيز مصر إليه ... وحباني بالعز والتكريم
قال لا تضع زمانك إلا ... في اكتساب العلوم والتعليم
فيمينًا لأرحلَنَّ سريعًا ... لبلاد الشمال أفق النسيم
أنا نجمُ وكم بمصرَ شموس ... ومع الشمس كيف مرأى النجوم
فلهذا بزغت نحو بلاد ... أنا فيها شمس لكشف الغيوم
في سفين النيران قالوا ولكن ... هي عندي تدعي سفين النعيم
جنة جُنَّة تجود في البحر ... ولو هاج مثل خيل هيم
ما شراع بها فيخرقه الر ... يح وتلقى حملاً كحمل الدهيم
مثل ما قد عاينت في نيل مصر ... حيث كنا تحت العناء الوخيم
كم سفين هوت بما كان فيها ... لاعتساف الملاح من سوء خيم

ثم نزلت في سفينة بخار نمساوية ٢٦ مرس وفيها ثلاث درجات:

الأولى: جهة الدفة، وهي مشتملة على عدة أوض وديوان وسفرة للطعام، وفيها كتب لمن أراد المطالعة.

والثانية: جهة السكان وليست كالأولى.

والثالثة: في الوسط لا أوض فيها، وهناك مطبخ وكرار.

ووقت الغدا مقرر، وكل من طلب شيئًا أحضره له الخدَّامون، ولو كان الثمن [٦/و] أغلى بسبب أن هناك ليس سوق، وسرتُ في البحر الأجاج المتلاطم الأمواج، وذلك أول ركوبي المالح والوابور، فحصل لي دوخه وتقيأت، وضاقت نفسي، فذكرت قول ابن رشيق[1]:

(١) الأبيات منسوبة لابن رشيق عند النويري في: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مجموعة من العلماء، ج١، دار الكتب المصرية والوثائق القومية، ط١، ١٩٣٢-١٩٩٧، ص ٢٥٥.

البحر صعب المذاق مرّ ... لا جُعِلت حاجتي إليه
أليس ماء و نحن طين ... فما عسى صبرنا عليه

ثم هدأت ثاني يوم، فقلت إذ ذاك:

النيل غضبان عليَّ كأنه ... لمحبتي لا يرتضي بتناءي
وأرى الأجاجَ الملح عذبًا سيره ... فكأنه متشوق للقاءي

وقلت:

وبورنا ونار كانونه ... من هول هذا البحر نصران
أزرق فيه زبد أبيض ... كأنه كشمير نصراني

وفي ذلك اليوم لم نر أرضًا أصلاً كما قلت:

والبحر أزرق كالسماء ولا نرى ... أرضًا كأنّا في طباق سماء

ثم وصلنا جزيرة جريد إحدى الجزائر المعتبرة في مملكة بني عثمان، يحفها جبل عال متعرج بالغاب، وهي مخصبة بسبب كثرة الينابيع، والإقامة فيها أحسن ما يكون في الدنيا كما قيل؛ لأنها مملوءة بالمواشي والأثمار الطيبة، والنباتات المختلفة، والمعادن الكثيرة، وافرة المحصولات من الحنطة والخمر والزيت والخشب والكتان والعسل والشمع والحرير والقطن والسمك والطير، وقد قاست كثيرًا من التقلبات والفتن، ولولا ذلك لكانت من أحسن البقاع، وسكانها كانوا في زمان الروم مليونًا ومئتي ألف، والآن نحو خمسمائة ألف فقط، وفيها مسلمون من ذرية العرب الذين كانوا رؤساء هذه الجزيرة، وروم، وبعض [٦/ظ] يهود، وأرمن.

وأرسينا في «كنى» أشهر مدنها، ومرساها جميلة تحيط بها البيوت المبيضة، فحكت لنا مباني الروم إذ كانت أول ما رأينا منها، وبها منارة توقد في الليل لاهتداء السفن، وقد رأيناها موقودة لأننا وصلنا في الليل.

وفي الصبح اجتمعت الناس أفواجًا على السَّاحل لمشاهدة الوابور، وتكاثروا لما سافر، وهكذا في كل البلاد. هذه الأعجوبة لم تنقض جدتها ولا أظنها تنقضي.

ومثلها في ذلك سكة الحديد البخارية، هذا ومخترع منفعة البخار الأول حُبس وعُدَّ كلامه كالهذيان، ومخترع سفينة البخار طلب من نابليون مالاً لعملها، فأعطاه ثم لما عملها وسيرها أخبره، فلما حضر واجتمع الجمُّ الغفير للرؤية ما سارت، فقال: يلزم أن تسير لأني سيرتها البارح، ولكن بعض الحُساد لعب في آلاتها، فما استمع له نابليون، فلما حُبس في جزيرة إلين، رأى سفينة بخار تجري، فتحسر زيادة على حسرته، وعض بنان الندم.

وقلت في سفينة النار، وكان بها كثير من الحجاج، وذلك عند سفري من إسلامبول إلى مصر مُوَرِيًا:

هذي العجيبة لا تَقَضى جدة ... هي جنة قد صُورَت من نار
فيها لبيت اللّه ساروا شُرعًا ... فغدت منافع مسلم ببخار

وعسر عليَّ جدًا الخروج لرؤية هذه المدينة بسبب الطاعون المصري المقتضي حبسنا في هذه السفينة ثم في الكرانتينة حتى نتطهر من هذا الحدث الأكبر، فما خرجنا أبدًا إلا في إسلامبول، لكن جاءت زوارق كثيرة فيها برتقان وغيره للبيع، فيؤخذ بالاحتياط التام وعدم الملامسة، إذ من لمس انتقض طهره، ثم سرنا منها في بحر الروم وقد هاج وماج، فعاد لي ما قاسيته أولًا، فقلت:

يا راكبًا لجج البحار مخاطرًا ... لا تغترر إن مرّ يوم صالح
لا يُنضح الماعون إلا بالذي ... قد حلّ فيه وهو بحرٌ مالح

وقلت :

للـــــــروم بحـــــــرٌ أزرق | كعيونهـــــم لـــي مُقلقُ
لكنـــــه متشعـــبٌ | والطـــرف منهـم ضيقُ
لا تعجبـــوا إن خِفتـــه | فهـــو العـــدوُ الأزرقُ
فلذاك قلبي نحـــو بحـ | ـــر النيـــل دومًا شيّقُ

وقلت عن طريق التخميس:

لما أردت إلى المعالي أرتقـــي
لم أخش من خطر السفار وأتقـي
بل جبتُ فيه مغربًا من مشـرقٍ

وركبـــت لجـــة بحـر رومٍ أزرق [٧/و] من خَطبه هيهات ما لي مشفق

أغبرّ عيش بالتصافي أخضر
والعود من بعد اسوداد مقمرُ
وأزور محبوب بديع أصفـــر
وقد حلا فيه الممات الأحمـــر
وما رثى لي العـــــدو الأزرق

فيه تلميح لقول الحريري: فَمُذُ اغْبَرّ العيشُ الأخْضَرُ...إلخ[1].

وقلت:

يا ليتني مثل الحريري قد رثى | له من الخُطَبِ العدو الأزرق

وقلت مواليا:

يا ناس على شان غزال البر في الأبحار
نزلت أدورو وفي الحال خدت مركب نار
أنا ترابي وجاني الضد ليـــل ونهـــــار
أهين من البحر أهين من الهـــوا والنـــار

(١) الحريري: المقامات البغدادية ، مصدر سابق، ص١١٣.

وفي «الهوا» توريـة بالهوى بمعنـى «الحب» ، وكذلك في النـار توريـة بنار العشق.

ثم أرسـينا ثالث يوم عند جزيرة سـيرة وبها محـل للكرنتينة ككنى، وبقربها منارة، وتزودنا منها لسـفينتنا فحم الحجر، فوقودها الحجارة لأنها سقر، ثم سردنا ومررنا على عدة جزائر إلى أن أرسينا عند أزمير، وهي مدينة عظيمة من بلاد الأناضول، بها كثير من الأشـجار والمباني، وهي شبه جزيرة؛ لأن البحر لا يحيـط بها مـن جميع النواحـي، واعلم أن بعـض علمائنا يطلق على شـبه الجزيـرة جزيرة كقولهم: جزيرة الأندلس، وهي تجوز بسـبب المشـابهة كما نبه عليه الشهاب الخفاجي[1].

وهـا هنـا نكتـة لطيفة، وهـي أن بعض مترجمـي مصر ترجـم كلمة «بريسـيكل» بالفرنسـاوية بقولـه: «بحيـث جزيـرة» [٧/ظ] وهـذا من ضيق العطـن؛ لأن هذا التركيب لا يحسـن في العربية، وزاد ذلك تعسـفًا بضم الباء التي هـي حرف جر فيكون تصغير بحث، وهو خروج عن البحث، وقد غربت عنه فصاحة اسـتعمال حيث فإنها لا تضـاف للمفرد إلا نادرًا، وأيضًـا أراد الاختصار فوقع في الإطناب من حيث لا يشعر، فإنه ترجم بثلاث كلمات مع الركاكة، فحقَ أن يقال له: «حفظت شـيئًا وغابت عنك أشـياء»، والذي ألجأه إلى ذلك أن كلمة«برسك» تترجم تارة ببحيث، وقد كان يغنيه عن هذا كله أن يقول: شبه جزيرة كما قلنا:

ومكلف الأشياء ضد طباعها　　متطلـــب في المـــاء جذوة نار

وهذا باللغة الروسية «بولواوستروف» أي: نصف جزيرة.

وقـد دخلـت أزمير عند رجوعـي إلى مصـر، فوجدتها بلدًا كثـيرة الزحام، نافقـة المتجـر، بها كثـير من الـروم والغرباء، ورأيـت فيها بيوت الـروم مبلطات بالرخام من أسـفل، وعند رجوعي ثانيًـا من مصر كرتنت في بيت ظريف على

(١) هو: أحمد بن محمد بن عمر، شهاب الدين الخفاجي، توفي سنة ١٠٦٩هـ، المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج١، المطبعة الوهيبة، ١٢٤٨ هـ، ص ص ٣٣١– ٣٤٣.

خورهـا، محفوف بالكروم والأشـجار، فأعقمنا هذه الأعنـاب، فلم يولد لها بنتًا تسحر الألباب.

ثـم مررنـا على بحر مرمرة، وعندها سـاعد اعتدال الهواء المـاء والنار، وقرب الأرض المخضرة بالأشـجار، فاجتمعت لنا العناصر الأربعة، وكم رأينا من بلاد وقـلاع وجبال وتـلاع، ورأينا سمـكا يطفو علـى الماء، وكذلـك في الخليج القسـطنطيني، ثم وصلنا مدينة الإسـلام والتخت الشـامخ على الدوام، مدينة قسـطنطينية المحروسـة، ونعمنا بطلعتها المأنوسـة، وكان ذلك ليلة السبت، فحصلت لنا الراحة والسـبت. لكن أسـفت جدًا على الوصول ليلاً بسـبب عدم إبصـار المواضـع القريبـة، وشـكرت النار الـتي أخرجتني مـن المـاء، إذ المراكب القلعية تمكث شهرًا أو أكثر، فقلت حينئذ:

لم يدر عُيّاد السعير بنفعها	بل أجّجوهـا في هباء هواء
وأرى الفـــــرنـج دروا	إذ سيّروا سـفنًا بها في الماء
بخـــــالص ســـــرها	قصـــــدوا التمـــــاس
مع أنهم لم يعبدوا فكأنهم	العـــــذر للقـدمـــــاءِ

[٨٧و] ومرسى إسـلامبول أبهج المراسي، ووضعها أحسن الوضع؛ لأنها ملتقى أوروبا وآسـيا بين البحر المتوسـط والبحر الأسود، محدقة بريف مخصب، وقصبة مملكة واسعة عريضة، ويمر بها محصولات الشرق والغرب والجنوب والشمال، تتابع فيها قوافل آسـيا وسـفاين أوروبا القلعية والبخارية بلا انقطاع، مملوءة بأمـم عديـدة وطوائف شـتى من الترك والـروم والأرمـن واليهود والفرنسـاوية وغيرهم، نافقة المتجر، بهية المنظر، يظهر عليها الخصب والخير والترف والمسـير، وزوارقها كالقسي.

ونزلنـا من الوابور في زورق في الخليج القسـطنطيني إلى قصر الكرنتينة في اسكدار، وهي مدينة كبيرة من آسيا أمام إسلامبول على شاطيء الخليج القسطنطيني الأيمن، فيها نحو مئة ألف ساكن، مشتملة على عمارات وحدائق

ذات بهجة، وقرافات مملوءة بقبور الرخام، في وسطها شجر السرو، فدهشت من حسن الأبنية على الطرفين خصوصًا من سراية حضرة مولانا السَّلطان، فإنه لا يفي بحسن نعتها قلم ولا لسان، وإحكام شرفها يؤذن بشرفها، فهي حرية بقول من قال[1]:

إنَ الملوك إذا أرادوا ذكرهم ... من بعدهم فبألسن البنيان
إنَ البناء إذا تعاظم قدره ... أضحى يدل على ارتفاع الباني

فقلت:

مذ لاحت إسلامبول وهي التي ... من يرها ودَ بها مسكنة
علمت أني ضاع عمري سُدًا ... في مصر دار الذل والمسكنة
نسيت من حسن مشيداتها ... أني يُغدى بي إلى الكرتنه

فإن قلت: لمَ قلت الكرتنة، وإنما هي الكرنتينه؟ [٨/ظ] لأن أصلها كرانتين كلمة أفرنجية من «كرانت» أي «أربعين»؛ لأنها أولاً كذلك، وأما الآن فأربعة عشر يوما، قلت: نعم لكن المصريين لما أخذوا هذه الكلمة استقوا منها فعلاً مع القلب، فقالوا: كرتن يكرتن ومصدره الكرتنة. وقَصَرُ الكرنتينة باسكدار على الخليج، وبه إوض كثيرة للأمتعة والمسافرين، وفيه حنفيات كثيرة، عذبة للوضوء، وغيرها من المرافق، فلا يحتاج للسقايين مع أنه على المالح بخلاف قصور مصر، فإنها محتاجة للسقايين ولو على النيل، وبقربة مقبرة للمسلمين ومقبرة لغيرهم، فمن مات أيام الكرنتينة دُفن هناك.

وعندما وافيناه كان هناك رجل مغربي معه جوار ماتت إحداهن بالجُدري، فغسلت وكفنت ودفنت هناك، وقد أخبرني ناظر الكرنتينه أن الطاعون من مدة ثلاث سنين يعني من وصولي، فُقد من إسلامبول وإلى الآن هو مفقود فيها، فله نحو ثلاث عشرة سنة معدوم والحمد للّه:

---

(١) نسبهما ابن سعيد المغربي للملك عبد الرحمن الناصر المراوني في: المغرب في حلى المغرب، ج ١، مصدر سابق، ص ص ١٧٩-١٨٠.

قالت وقد عزمت على ترحالها : ماذا تود؟ فقلت: أن لا ترجعي

فمتى تُفقد من مصر هذه الطامة والداهية العامة التي تخرب البلاد، وتهلك العباد، وقد أصبت في طاعون سنة ١٢٥٢هـ، ومكثت نحو عشرة أيام بلا نوم، وكان رأسي ثقيلاً جدًا وخيف عليّ الهلاك وقت البحرانه، وغاب عني الإحساس والعرفان، ولكن اللّه سلّم، فانفتحت كرة الخطوب وبثرة الكروب، فهل سمعت قولي:

يكفيك ياكرة الخطوب إقامتُ وتدحرجي ما للكرات قرار
وتفجري لو كنت أنتِ حجارة فلربما تتفجر الأحجار

فأحسست بالخفة، وبعد نحو أسبوعين التأم الجرح، [٩/و] وانضم الفتح، وقد كان لي وِرْدٌ أقرأه للحفظ صباحًا ومساءً، فلتنفيذ إرادة اللّه نمت ذلك اليوم مستأخرًا، واستيقظت وبرجلي أثر خفيف، ثم تضاعف وأضعفني، وأشيع في القاهرة موتي، فلما علمت بذلك قلت مضمنًا:

تمنى أناس أن أموتَ وأن أمُت فتلك طريق لست فيها بأوحدِ
وإن أظهروا موتي فليس بمُنكر إذا أظهر الشيطانُ موت محمد

وهذا تلميح لإشاعة الشيطان: قُتل محمدًا. يعني النبي صلى اللّه عليه وسلم في بعض الغزوات.

ثم إن قصر الكرنتينة تحت الجبل وكله أخضر بالأعشاب. والجبل مملوء بالخضرة والأشجار، وهكذا جبال الروم، فليست محله كجبل الجيوشي بمصر، فما ألطف العبور في الزوارق في طول الخليج إلى البحر الأسود، فهناك الجبال محفوفة بالأشجار من الطرفين، مزينة بالبيوت الجميلة والبعيدة، مسكن الأمراء أيام الصيف، ثم خرجت من الكرنتينة ونزلت غلطة، وهي بلد كبيرة مشحونة بالفرنج وطرقها وعرة ضيقة في صعود وهبوط، متعبة في المشي، أمام إسلامبول، وبها قبة عالية سلالها كالمنارة، لكن في وسطها اتساع وفيها قهوة فوق وشبابيك محدقة بها من سائر النواحي، نظرت فيها المراكب والقصور، وفيها ساعة دقاقة من حديد.

[٩/ظ] ثم ذهبت في زورق إلى إسلامبول، فوجدتها لطيفة جدًا إلا أن لطف الظاهر أبدع، ولعل بهمة مولانا السُلطان أن يكون ظاهرها عنوان باطنها يومًا، وغالب أسواقها ظريفة كخان الخليلي بمصر وأحسن، ومساجدها كثيرة جميلة معتبرة، وكذلك قرافاتها خصوصًا قبور السلاطين، ففيها تأنق زائد، وفيها حمامات عديدة حسنة البناء، وبها كثير من تجار العرب كالمغاربة والشوام، ويظهر على أهليها الغنى، وبها كثير من الأقمشة من كل جنس، ومن الطرف المنسوجة والمطرزة والشيلانا الكشميري وغيرها، وأصناف الحلوى، والعطر كدهن الورد، وبها الخطوط الحسنة حتى في نقش الفصوص التي يختم بها، وبيوتها مبلطة بالخشب، وسقوفها مسنمة بالحجارة أو الخشب، لكثرة الأمطار، فالربيع بها كشتاء مصر، مع أن المطر لا يكثر بمصر حتى في الشتاء، وأما فيها فكثير.

وعند هبوب الريح من البحر الأسود تغيم السماء وتمطر، وعند هبوبها من بحر الروم تصحو السماء، ولا يكون مطر، ومع وجود الكلاب في إسلامبول ومصر، فليس خطر، فلا يسمع أن أحدًا مات من عضة كلب كلِب كما في بتر بورغ وأطرافها، فإنه تارة يتفق ولو نادرًا وجود هذه المصيبة، وقد وجد هذه السنة عدة كلاب بعضها كان بيتًيا وعض بنتًا صغيرة وماتت من العضة، وقد كانت عضت أختها، [١٠/و] فبعد مدة تغير لونها، ثم ثار عليها الداء وهو كريه جدًا؛ لأنه لا يقصر على من عضه الكلب الكلِب، بل كان من عضه المعضوض يصير مثله، وهكذا ولو حيوانًا فيصير الإنسان أو الحيوان سعرانًا، وكذا كل من عضه، وتارة يتأخر ظهور هذا المرض حتى يظن أنه ذهب بالكلية، ثم يظهر وتارة بعد سنة. ولا يصدق الأوروبيون ما في كتبنا، بل ولا نصدق نحن أن دماء الملوك شفاء من الكَلَب، قال الشاعر:

بناةُ مكارمٍ وأساةُ كَلمٍ ... دماؤكم من الكَلبِ شفاءُ

وعلى ذكر الكلاب، فينبغي أن يتنبه أنه لا يوجد في بلاد الترك الكلب المسمى «الكلب التركي»، فهذا الاسم لعله مبني على بعض خرافات لا أساس لها، ومثل هذا أيضًا الكلب المسمى الدانيمارقي لا يوجد في دنيمارق،

وقد تنسب بعض الأشياء لبعض البلاد لنفاقها ورواجها. مثلا يسمون تارة المطاوي التي تضنع في مصر مطاوي إنكليزي، والسفر و نحوها المشغولة في الروسيا نيمساوية، وبالجملة فليس كل اسم على مسمى، بل تارة تسمى الأشياء باسم ضدها تفاؤلا كما سميت القافلة قافلة من القفول، وهو الرجوع تفاؤلاً أن ترجع، وكما سميت المهلكة مفازة تفاؤلاً بالفوز، وهذا باب واسع الذيل غزير السيل.

ولقد وقع فى مصر جليد فى بعض السنين فاتخذته العامة تاريخًا لغرابته، وقالوا سنة الجليط أىً الجليد، وتكثر الحديقة باسلامبول لكثرة الأخشاب دون مصر فإن ذلك نادر فيها، ولذلك لمًا وقعت الحريقة فى القلعة صار ذلك تاريخًا عند أهل مصر، وقالوا سنة حريقة القلعة، وكذلك لمًا وقعت فى الموسكى، ولذلك ليس [١٠/ظ] فيها مواضع معدة لنظر الحريقة، ولا آلات الإطفاء من الطرنبات و نحوها كما فى بلاد الإفرنج.

والمسلمون يقفلون دكاكينهم يوم الجمعة، كما تغلق اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد بخلاف مسلمي مصر، فإنهم لا يقفلون حوانيتهم، ولقد صليت الجمعة بمسجد قريب من الخليج محكم البناء، مفروش بالبسط، مقبب إلا أن الخطيب تارة يتأنق في الخطبة زيادة عن العادة، وطورًا يسرع وتارة يُسرّ وأخرى يجهر، وهناك دكة صغيرة بالصدف يجلس عليها من يقرأ سورة الكهف، ومن تحتها موضع بدارابزي صغير يصلي فيه إذا نزل، وهذا لا يوجد في مصر، فإن من يقرأ سورة الكهف إذا نزل من الدكة كغيره، ولا توجد في هذه الجوامع ميضئات كمصر، بل حنفيات وأباريق، وكل ذلك الماء عذب.

وفي الطرق حنفيات كثيرة يستقى منها، ويملأ السقايون قربهم و يحملونها على ظهورهم، وربما ملأوا بالري على الخيل، لكن في غير الأسواق، وفي مصر السقايون يحملون القرب على الحمير، والري على الجمال لكثرة الجمال والحمير هناك، وقلتها بالقسطنطينة، ولون البقر بها أغبش، والجواميس توجد بها قليلاً، لكن مع الغطاء في البرد بخلاف مصر فبكثرة

مـع عدم الغطاء، ولون بقرها أحمر وأبيض ناصع وأسـود، ومـن المباني العجيبة بالقسـطنطينية قبة أية صوفية، وتسـمى قبة السـماء، كأنها هرم ما ضارَها قـدَم ولا هَـرَم، جامـع عظيم، وأصلـه كنيسـة لقسـطنطين، [١١/و] واحترقت فبناهـا يوسـتينيان، وصـرف فيها على ما قيل خراج مصر سـبعة عشـر سـنة، وضاهـى بها الباني المسـجد الأقصى، وما علم أنها تنقلب بالإسـلام في كعبة إسلامبول مسجدًا أقصى.

ففـي سـنة ٨٥٧ لمـا افتتـح السَـلطان محمـد الثانـي[1] المدينة، دخـل هذه الكنيسـة راكبًا على حصانـه، وبعدما صلى فيها وأزال آثـار عباد الصليب وصورهـم، جعلها مسـجدًا يتلى فيه القرآن بدل الإنجيـل، فجزاه اللّه خيرًا على سـعيه الجميـل، ويرشـد لذلك وضـع القبلـة والمنبر، فـإن المنبر بـارز في جانب والقبلة خارجه من الحائط، وبينهما مسـافة والعـادة في بناء الجوامع أن يجعل المنبر ملتصقًا بالقبلـة، وتكون القبلة في حائط الجامع، وفي القبلة شمعتان كعمودين وبقربهما ألواح معلقة بالخطوط النفيسة، وفي هذا الجامع دواليب للمجاورين، كما في الجامع الأزهر، وبوسـطة خابية كبيرة من رخام يستقى منهـا، وبها كثير من العـرب خدمة وفقراء وبوابين، ورأيت فيه خمسـة عميان وبصـيرًا يقـرأون البُردة كما في مصـر، وتلفظهـم حسـن، لأن أصلهم عرب، فأعجبـني ذلك، إلا أنهم يلحنون، وهم معذورون لأن اللحن قد يتفق ممن يقرأها في مصر، بلد العربية، فكيف في إسلامبول بلد الترك؟! ويقول بعضهم:

مولاي صل على من حلَّ في الحرم محمد المصطفى المخصوص بالكرم

---

(١) محمد الثاني الفاتح: ولد هذا السـلطان في ٢٦ رجب سـنة ٨٣٣ هـ (٢٠ ابريل سنة ١٤٢٩) وهو سـابع سـلطان ، تولى الملك بعد أبيه، وكانت آسـيا الصغرى جميعها تحت سلطانه إلا جـزء من بلاد القرمان ومدينة سـينوب ومملكة طرابزون الرومية ، وفي يوم ٤ ربيع الأول سـنة ٨٨٦هـ (٣ مايو سـنة ١٤٨١م) توفي السـلطان محمد الثاني الغازي عن ثلاث وخمسين سنة ومدة حكمه ٣١ سنة، استطاع خلالها أن يفتح القسطنطينية، وزاد عليها مملكة طرابزون الرومية والصرب والبوشـناق وألبانيا، وجميع أقاليم آسيا الصغرى، ودُفن في أحد الجوامع التي أسسها في الآستانة. لمزيد من التفاصيل انظر: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص ص ١٦٠، ١٧٦-١٧٧.

بدل قول المصريين:

مولاي صل وسلم دائما أبدًا　　على حبيبك خير الخلق كلهم

[١١/ظ] ويقرأ الباقون بيتًا من البردة، وبين أيديهم محرمة لجلب الصدقة. وقبتها عالية جدًا ومناراتها أربع سامية.

لطيفة:

اعلم أن إسلامبول تسمى القسطنطينية بالنسبة العربية إلى قسطنطين بانيها، وكانت تسمى قبل ذلك كستنتينيول، أو نحو ذلك، يعني بلد قسطنطين، فلما أخذها المسلمون، قالوا: إسلامبول - أي بلد الإسلام. ولم تبق التسمية القديمة إلا عند النصارى، وتسمى بالتركية استانبول، وعوام مصر يقولون: اصطنبول، قيل هذا مأخوذ من لسان الأروام؛ لأن استينبولي معناها «إلى المدينة»، وعند أخذ الترك هذه المدينة سمعوا مرارًا عديدة الروم يقولون هذا اللفظ، فظنوا بسبب عدم معرفة اللسان أنه اسم المدينة، ومن أمثالهم: «جاي من اصطنبول في علبه»، أي حضري غير فلّاح، يقولون ذلك: هُزأ، ويقولون أيضًا: منديل اصطنبولي، أو بابوج اصطنبولي، وربما بدلوا الطاء صادًا وقالوا: اصنبول، أو: اصنبولي، وقلت مواليا:

يا ناس على شان أشوف الأهيف المكحول
سافرت اجريد ورحت أزمير واصطنبول
رأيت ملامح شكلهم في كل شيء مقبول
ما عندهم شيء رزالة زي ما في مصر
علل على القلب لكن يلتقوا المعلول

وشرط المواليا الخلو من الإعراب، واستعمال اللحن كما في المستطرف، ولم استنكر من اسلامبول الأقواويق[1] [١٢/و] الأرمن التي هي كالبوش، وزي النساء، ومسئلة الذوق لا حرج فيها وكل حزب بما لديهم فرحون:

(١) مفرد قاووق (تركي): قلنسوة غير ذات وبر أسطوانية الشكل تلف في أسفلها قطعة من الموصلي (المويلين). وحشية من القطن. (بوشر). دوزي: تكملة المعاجم العربية، ج ٨، ص ١٦٠.

لا تعذل الإنسان في شهواتـــــه في الناس من يلتذ طعم الحُصرم

وكذلـك صعوبـة الطرقـات في بعـض الجهات بحيث يعسـر فيها مشـي العربـات، ولذلك الغالب فيها المشـي أو ركـوب الخيل، فهي أجـدر بأن تكون جحيم الخيل، وقلت في مدحها:

قد عاب اسلامبول من لم يـــدرها وكذا المليحة عندي ذي عُنّة
ما ضارها إن كان بعض طريقها مثل الصراط فإنهـــا جَنّـــة

وبالجملـة فـلا تعدم الحسـناء ذامًـا، وقد ركبـت حصانًا مرة مـن غلطة، وتوجهـت إلى إسـلامبول على القنطـرة، وهذه القنطـرة طويلة جـدًا، من رآها علـم عرض الخليج؛ لأنـه في المرآى صغير، وذهبـت إلى بالقلـي – منتزة جميل كبركة الشـيخ قمر بمصر كل أرضه مخضرة، فيها أشجار، وكـذلك كل الطريق خارج المدينة لينة سـهلة ليسـت كلها حجارة، بل في وسطها لكثرة المطـر، وبها كثير من الأشـجار، وفي هذا المحل كنيسـة الروم الـتي بنوها بإذن السَّـلطان محمود[1] عليه رحمة المولى المعبود، وكـان ذلك ذريعة إلى استدعاء أرمن مصر تجديد كنيسـتهم لمّا نازعهم في ذلك علماء مصر، وقد أجيبوا، وفي هذه الكنيسة موضع ينزل إليه بسلالم فيه ماء يزعمون أنه قدسي، فيغسلون منه رؤوسهم ويشربون تبركًا، وقد وجدت فيها جآذرًا وظباء، كما قال الأخطل في كنيسة الروم[2]:

[الخفيف]

إنَّ مَن يدخل الكنيسة يومـــًا يلقَ فيها جآذرًا وظبـــاءًا

(١) هو ابن السطان مصطفى الثاني، ولد في أغسطس سنة١٦٩٦م، وخلال عهده اتسع نطاق الدولة العثمانية بآسيا وأوربا، ومحت معاهدة بلغراد ما لحق بالدولة من العار بسبب معاهدة كارلوفتس، ثم توفي في ١٣ ديسـمبر ١٧٥٤، بالغًا من العمر ما يقرب من سـتين سنة، وكانت مدة حكمه ٢٥ سـنة. للمزيد راجع: أحمد آق كوندز، سعيد أوزتوك، مرجع سابق، ص ٣٥١؛ محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص ص ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٢٦.

(٢) ابن حبيب السكري، شعر الأخطل، الأب أنطوان صالحاني اليسوعيين، الطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، بيروت، ١٨٩١، ص١٩٨.

وهناك ناس كثير يجتمعون كما في موالد مصر وسوامر للرقص [١٢/ظ] بتقليب الأرجل بصناعة، لا بهَزِّ الأرداف كما في مصر، وهناك آلات الملاهي كالكمنجة والقانون، وخيام فيها القهاوي والشربات و نحو ذلك، وللصغار مراجيح كمصر، وقد رأيت بالاتفاق بجانب سامر الرقص، سامرًا في وسطه ميت أرمني يراد دفنه، وجهه مكشوف، وعليه قاووقه، ثم حفروا له حفرًا عميقة، ونضوا قاووقه وألقوه مكشوف الرأس، ورمى عليه القسيس خرقة كأنها لستر وجهه، ثم رش عليه ماء، وهمهم بكلام لا أدري ما جنس هذا الماء والكلام، فهؤلاء كما قال الحريري: «لم يمنعهم الدفن عن الزَّفْن»[1]، وما رأيت أحدًا بكى عليه ولا استعير.

وبجانب هذه الكنيسة قبور المسلمين وأكثرها بالرخام، ومكتوب عليها الأسماء، ثم ذهبت من جهة ثانية، درت فيها حول المياه العذبة تحت الجبل المخضر، ثم عديت على قنطرة أخرى إلى مروج واسعة، ثم إلى كاغد خانة، سمى بذلك لأنه كان كرخانة للورق أيام السُلطان أحمد، وهناك يتفسح كثير من الناس، خصوصًا سكان غلطة ويتنزهون، وهناك قهوة كبيرة، وقصور حسان، وحور وولدان، وذكرت بسيري هناك السير في ريف مصر أيام النيل لكثره الماء، فصار الحصان يزلق في الماء، وهذا في الربيع، فكيف بالشتاء، ثم صعدت فوق الجبل، ورجعت إلى غلطة من جهة ثانية، وطريق هذا الجبل سهلة لينة، وكله أخضر، وفيه أعمدة جميلة، مكتوب عليها بالذهب، وعليها نشان السُلطان محمود، وضعت [١٣/و] علامة على غاية رمية السهام، لأنه كان فارسًا راميًا، ولهذه الجهالات والأوهام راميا، أخضل الله ضريحه، ورفع بالرحمة روحه، وتحت الجبل مقبرة كبيرة مخضرة مشحونة بالأشجار المتناسقة، فلله ما أحسن تلك المواضع التي كان السحاب لحسن تربتها من المراضع، ورآني رجل مغربي في كاغد خانه فعرف بزيي أني من مصر، فقال لي يامصري أين ذهبت؟ فقلت إلى غلطة فدّلني على الطريق.

---

(١) وردت العبارة بصيغة مخالفة عند الحريري هكذا: (وضحكتم عند الدّفن. ولا ضحككم ساعة الزّفْن)، والزفن : نوع من الرقص، المقامات السّاوية، مصدر سابق، ص٩٤.

وقد ذهبت إلى بيت الجي الدولة الروسية في غلطة[1]، فقابلني بالبشر وحسن الملاطفة، وأوصى عليّ الترجمان المسافر معي مسيو موخين بالتلطف بي في الطريق، وهذا الترجمان كان صاحبي في مصر من منذ أعوام وقرأ عليّ شيئًا من المعلقات وأخبار شعرائها، وله دراية في كثير من اللغات كالفرنساوية والتركية، واسمه نِقوله موخين، وفي هذه السنة لمّا رجعت إلى اسلامبول، وعدت إلى ساحلها المطلول، والعَوْد أحمد، ذهبت إلى الجي الدولة الروسية الجنرال تيتوف، فتلقاني بالطلاقة والبشر، وذلك أولاً من حسن طبيعته، وثانيًا بسبب رسالة وصاية كتبها لي حامي الغربا وناصر العلما مدير الديوان الآسي والمداوي لعلل القلوب، والآسى الجنرال سيناوين، وبحسن عنايته، أتنعم في هذا السفر، كأني في الحضر، وأتلو فيه قول الشاعر:

وما سافرتُ في الآفاق إلاَّ	ومن جدواك راحلتي وزادي
محبك حيث ما اتجهَتْ ركابي	وضيفك حيث كنتَ من البلاد

[١٣/ظ] ثم فارقت اسلامبول، وليَ على فراقها أسف الثكلى، ونزلت مع الترجمان المذكور في وبور روسي ٢٣ شباط، وسرت في الخليج القسطنطيني مدة أتمتع فيها برؤية البيوت والأشجار من الطرفين، وأتلذذ بطيب الهواء الذي تقر به العين حتى وصلت إلى البحر الأسود، وهناك عند الخروج من الخليج بيوك در لطيفة البيوت والأشجار، ولم أجد الماء أبدًا، وصرت أجري على ظهر الوبور، وابتدأت في تعلم الروسي مع صاحبي الترجمان، وقلت مواليا في فراق اسلامبول:

أهيف من الترك خلي القلب في تفتيت
لَمن رأى الحب من عيني عمل تتليت
إن قلت جيت يا بديع الحسن قال لي جيت
من خجلتي فت له اصطنبول أنا وجريت

(١) أي سفير الدولة الروسية.

وكان الوقت طيبًا، والقمر يخلف الشمس كما قلت:

الشمس إن غربت يبدو لنا قمر فنحن بين السماء والبحر في نور

وقلت:

البحر أسود والسماء زرقاءُ لكنَّ فيه سفرتي بيضاء
أنا آنس من طيب وقتي راقص ومطيتي طنانة غنّاء
تشدو فيضطرب الصحاب بشدوها لكنني طربٌ فذاك غناء
ببخارها تعدو على أمثالها إن صحّ أو إن لم يصحّ هواء
وتنق في البحر العميق كضفدع وتخافها حياته والماء
فالماء منها قد تغير لونه وعلاه نوحٌ مقلق وبكاء
[١٤/أ] هل نارها نار الجحيم أما ترى تلك المياه ومالها إطفاء
في بطنها قيظ وفي ظهر ربيع أو خريف تارة وشتاء
وركبتها فوق الأجاج وقبلُ ما للنفس جارية حلت سوداء
فكأنها عربية تجري على عجلٍ ولكن خيلها سحراء
عامودها قذف الدخان كأنه بركان نار عمّها الإذكاء
أو مثل سعلاة أطار الريح في الـ ـجو الشعور ورأسها شمطاء
وتخال مروحة الهواء كأنها راقصة لكنها صماء
أعجوبة في شكلها فاقت فقُلْ في وصفها ما تشتهي وتشاء
هي خان زاد أو حصان مسافر أو مركب للسير أو رمضاء
أو معمل الحداد أو هي نزهة أو بيت سكنى جادَهُ البنّاءُ

ثم اتفق الإرساء عند ميناء أودسا غروب شمس يوم الخميس، ومدة السفر كانت أربعًا وخمسين ساعة، وعند الرجوع هذه السنة كانت مدة السفر تسع وثلاثين ساعة، بل قال لي الملاحون إنهم وصلوا تارةً في إحدى وثلاثين ساعة، فبتنا في الوبور، ثم توجهنا الصبح في زورق إلى محل على البحر مع القبطان، فنظرونا ونظروا تذاكرنا ثم ذهبنا إلى محل آخر نظرنا فيه حكيم، وأمرنا بوضع أيدينا على آباطنا بقوة، وكل ذلك مع الحاجز، ثم ذهبنا إلى

الكرنتينة مع أمتعتنا، فأما نحن فذهبوا بنا إلى محل، أمرونا فيه بالتجرد من الثياب جميعها، ثم ينظرنا الحكيم مقبلين ومدبرين، وفي هذا الوقت حصل لي خجل عظيم، وأبيت أوّلاً كعنيزة[1] مع امرؤ القيس، يوم دارة جلجل[2].

ثم أخذنا ثيابًا نظيفة غير ثيابنا من هناك، وهذا الملبس قميص ولباسان، وقفطان تتري، وطاقية، [١٤/ظ] وطربوش طويل، وصديري، ومنديل، كأن الشخص في هذا الملبس من التتر أو من رؤساء الغجر، وقلت إذ ذاك:

ويوم أودسا جـــردوني بدلتي ... فصرت بلا ثوبٍ كيوم ولادتي
لبست ثيابًا غيرها فكأنني ... صغير تبدّى في قماطٍ ولفتِ

ثم ذهبنا إلى المحل المُعد للإقامة مدة الكرنتينة فوق الجبل، وهو مشتمل على عدة أوض كاملة الأدوات، محكمة البناء، وحيطانها بالورق المنقوش، وأعطي لنا خفراء يحرسوننا، وفي الظهر أُحضر لنا الغداء وهو محكم، وكلما طلب الشخص شيئًا حضر. وخُبز هذه المدينة نظيف ظريف إلاّ أنّ ماءها ثقيل الطعم كما قلت:

---

(١) شبّه الشيخ الطنطاوي حادثة رفضه التجرد من ثيابه جميعًا لخجله بحادثة عُنيزة عشيقة امرؤ القيس- ابنة عمه- وأنه طلبها وأراد أن يتزوجها ولكنها رفضت، فكان يريد أن يراها عارية فراقبها حتى إذا كان يوم الغدير – وهو يوم دارة جُلجل- فراقبها مع بعض الفتيات الاتي تجردن من ملابسهن ودخلن الغدير، فقام امرؤ القيس بأخذ ثيابهن وأقسم ألاّ يُعطي جارية منهنّ ثوبها حتى تخرج كما هي فتأخذ ثوبها؛ فخشين التأخر عن المنزل مع اقتراب رحيل النهار، فخرجت إحداهن، فوضع لها ثوبها فأخذته، وتتابعن على ذلك حتى بقيت عُنيزة، فناشدته بأن يعطيها ثوبها؛ فأبى ، ومن ثمّ خرجت عُنيزة ونظر إليها، فأخذت ثوبها فلبسته. أبو الفرج الجوزي: المنتظم من تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، ج٢، دار الكتب العلمية، بيروت،طبعة الأولى، ١٩٩٢، ص ص١٣٨-١٣٩. وانظر أيضًا: ديوان امرؤ القيس، تحقيق: محمد ابو الفضل إبراهيم، ذخائر العرب ٢٤، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤، هامش ٩، ص ١٠.

(٢) دارة جلجل: تقع في بطن الهضب، من جهته الجنوبية الشرقية، ويقال لها اليوم دارة جلاجل، وهي دارة عظيمة تحيط بها هضبات. راجع عنها: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، بيروت، دار صادر، ١٩٧٧، ص ١٥٠.

ولله يـــوم أودســا وطــودها تطل على مرسى به حفت السفن
وقد طاب عيشي في رباها ومرجها ولكن طعم الماء ليس به حُســن

وذلك أنها على البحر الأسود المالح، وليس فيها نفسها ماء عذب، إنما يجلب إليها من آبار أو عيون، وتارة يشربون من ماء الصهاريج المملوءة من المطر والعيون بعيدة بنحو ست فرست - يعني فرسخ روسي كما يأتي بيانه، وبسبب حلاوة ماء العيون أكثر من ماء الآبار دائمًا ترى العربات ماشية حاملة البراميل المملوءة بالماء، ثم ذهبنا ثاني يوم وأخذنا ملابسنا الأصلية وأمتعتنا، فوجدناها منشورة على أخشاب معطرة مبخرة، ومحل الكرنتينة نظيف ظريف، وهو قسمان: قِسْمٌ لمن ألمَّ به الطاعون، وإذا مات فيه أحد أُحرق هو وأمتعته، وقسم لغيره.

وهناك المروج، فكنا نتفسح فيها وننظر السفن الواردة والذاهبة، [١٥/و] وإنما لم يكتفوا بكرنتينة اسلامبول؛ لأنها جديدة ليست قاسية، فيظنون أنها غير كافية، وشدة خوفهم من الطاعون أوجب ذلك خصوصًا من وقت حصوله في أودسا سنة ١٨٣٧ مسيحية، بسبب إخفاء بعض البضائع، ولهذا بعد وفاء أيام الكرنتينة يحلفون الناس هل خانوا الكرنتينة، وأمَّا أنا فأرسلوا لي ورقة مكتوبة بالتركي متضمنة للحلف بالأيمان المغلظة التي منها الطلاق، فقلت: لأي سبب هذا الحلف، هم قلعونا الثياب، وصرنا عرايا بين أيديهم ثم بخروا الثياب وردوها لنا. ففي أي شيء نخون الكرنتينة، فقيل لي: الروس وكل الفرنج يخافون جدًا من الطاعون، ومع كل هذه الاحتياطات فيمكن أن في وسط الأمتعة بعض شيء وباء، فلدفع التهمة بالكلية يحلفون، فحينئذ كتبت اسمي على هذه الورقة.

والتحليف كثير عند الروس، فيُحلفون المستخدم حين دخوله في الخدمة أن يكون أمينا للقيصر وولي عهده، وكذلك عند قبوله الرتب حتى إن أولاد القيصر يحلفون حتى يبلغون الحلم. ولنترجم هنا ما ذكره بعض مصنفي

الـروس في ظهـور الطاعون أيـام كترين الثانية[1] سـنة ١٧٧١ قال: «هذا سـوط غضـب الله النـازل مـن مملكة الـترك إلى المليـة المجاورين لهـم في وقت زحف الروس على بغدان[2] وبلاد الأفلاق».

ومـع وجـود الكرنتينات الـتي رتبت في الروسـيا أيام كترين الكبيرة للاحتراز، دخل الطاعون في وطننا وانتشـر في ٣ كانون الثاني، وفي ٩ من ذلك الشـهر دبروا في دفع هذه الداهية بكل الوسائط، وفي الأثناء الكبة، افترست الأخطـاط الجنوبيـة الغربية من الروسـيا، وبسـبب ذهاب العسـكر إلى اللين والـترك كان غير ممكن إحاطة القـرى الوبائية. ولهذا أخـذت المملكة أوّلاً في عمل الوسائط التي [١٥/ظ] توقف هذا الحادث وتقمعه، فانتخبت أبعاد سليم العيال من مريضها، وإبقاء المرضى في البيوت، ويعطي لهم من الشبابيك الأقوات علـى الميري بعدم الملامسـة وكثـرة الاحتياط، وعلـى تقدير مـوت المطعون يهدمون بيته و يحرقونه هو وأمتعته، وهذه الواسطة كان معمولا بها فقط في المدن، وبسـبب عدم احتياط الناس وجهلهم المتسـبب عنـد عدم تصديقهم بنفع هـذه الواسـطة انصبّ الطاعون كالسـيل المهلك في الروسـيا متقوتًا بألوف من القرابـين، ومنتقلا من محل إلى آخـر وقبله الأخبار المهولة التي آيسـت الروس من الحياة، فقط الهلع والأنين يسـمعان حيث الهدوء والسعادة المقترنين عن قريب قوما معيشـة الروس تحت حكم كترين الكبيرة، وفي الآخر أسـوار موسـقو مـا حمتها مـن الضيف الملعون الجالب المـوت، ففيها كان ظفر الموت السـاكن

---

(١) هي صوفيا أوجستا فرديريك دنهالت زر بست، ولدت سنة ١٧٢٩ بمدينة ستيتن من مدن بروسيا، ولم تسـمّ باسـم كاترين إلا وقت زواجها بغراندوق الروس إذ منحتها إياه الكنيسة الأرثوذكسية، وكانت أسرة «دنهالت» بروتستانتية لوثيرية، ولم تكن أصولها مشهورة، ومع ذلك فكان لها امتياز الاقتران بالأسر المالكة، ومع أنها كانت تابعة لمللك بروسيا فكانت لها السيادة في بلادها،وفي سنة ١٧٦٢ توفى زوجها بطرس الثالث، ثم تم تتويجها إمبراطورة للروسيا، واشتهرت بالسير على خطة بطرس الأكبر، فاسـتولت على بلاد القرم وقلعة آزاق وغيرها، واقتسمت مملكة بولونيا مع النمسـا والبروسـيا، وتوفيت عام ١٧٩٦. انظر كاترين الثانية « أشهر الخاطئات من صاحبات التيجان»، قصة تاريخية، ترجمت خصيصًا لمجلة الهلال، مطبعة الهلال، القاهرة، ١٩٢٢، ص ٦؛ محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، هامش ١، ص ٣٢٩.

(٢) هـي المنطقة الشـرقية من رومانيا المتاخمة لحدود الاتحاد السـوفيتي والكائنة بين نهري بروت Prut وسيرت Siret. انظر: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، هامش (٢) ص ١٧٣.

ومنظر الجهل، ولنقل هذا بلا لوم أسلافنا، لكن لومهم لازم أولًا لتعلم الذرية.

وأودسا أول ما رأينا من بلاد الموسكوب، بل من بلاد الفرنج، وهي جديدة العمارة من منذ خمسين سنة، وازدادت عمارة من منذ ثلاثين سنة، وكل وقت تزيد، وهي فرضة عظيمة من فرض الديار الموسقوبية، كثيرة التجارة والأمتعة فيها وسائر الأشياء رخيصة بالنسبة لغيرها من بلاد الموسقوب، بسبب أنه لا جمرك فيها على البضائع الداخلة ترغيبًا للمسافرين [١٦/و] في الوصول.

والمنهل العذب كثير الزحام، فلذاك تراها مملوءة بعربات المتجر، وقلَّ أن تنفك إلاّ في أيام الأحد والأعياد، ولسانها العام اللسان الروسي كسائر بلاد الموسقوب، وإن كان يتكلم فيها بكل الألسن بسبب كثرة الغرباء، وزيادة على ذلك، إن الكبراء لا بد لهم من معرفة الألسن الغريبة كالفرنساوي والنيمساوي والإيطالياني، فذلك فرض عندهم في التربية خصوصًا لبناتهم. وهواؤها معتدل في الغالب، لكن الغبار فيها كثير بسبب كثرة العربات المحملة بالبضائع وغيرها، فهي لا تنقطع من طرقها، وتارة بسبب كثرة الرياح والأمطار بها قليلة، لم نرها إلاّ ثلاث مرات مدة الكرنتينة.

ورأينا الرعد والبرق ليلة واحدة، لكنه كالمدافع والمشاعل بحيث ينير الجو كله، ولا يقدر الطرف أن يحققه، وتارة يظهر كالأعمدة، وتارة كالمشاعل، فتذكرت إذ ذاك حريقة جبر الخيلج في مصر، وكانت الأيام طويلة أكثر من مصر، فكأن النهار أكثر من ستة عشر ساعة، وهكذا كلما بعد الإنسان جهة الشمال، كما تذكر في أيام بتربورغ، وقد قضينا هذه الأيام في الحظ واللعب في تلك المروج والتفرج على البحر والسفن فلا عيب فيها، إنها تُعد من العمر كما قلت:

وأيام على أيام مصر	تطول وغينها عنّا مُحجّب
ولست أرى بها عيبًا سوى أن	تُعدّ عليَّ من عمري وتحسب

واستمررت على تعلم لسان الروسيا مع صاحبي، وحفظت بيتين [١٦/ظ] بالروسي مناسبين لحالي، وقلت في ترجمتهما:

الوداع الـــوداع ثم وداعًـــا يا بلادي وعزتي الأقربينا
يا بلادًا من أسعد الأرض فيها أنا قضَّيت بالمسرة حينـــا

ثـم عند خروجنا من الكرنتينة جاء حكيم آخر ونظر آباطنا وعورتنا، ثم توجهنا إلى ديوان الجمرك، فنظروا الأمتعة جميعها، وأرسـلوا الكتب إلى محل آخـر لينظروها، ثـم أخذتها بعد ذلك وسـكنت في موضع معدّ للغرباء متسـع نَّير، وكل هـذه المواضع التي للمسـافرين كذلك، وكذلـك البيوت وطرقها واسـعة جدًا دائمًا يسمع بها قرقعة العربات ليلا ونهارًا، وفيها منتزه على البحر يسمى «البولفار»، وهو أربعة سطور طويلة من الشجر تمر الناس بينها للتفسح خصوصًا في العصاري، وخصوصًا في اليوم الذي تكون فيه الموسيـقى[1] مثل يوم الأحد، وفيه ذلك لطيفة مثبتة لاستراحة المتفسحين، وعند طيب الهواء ليلًا تذهـب النَّاس وتجلس هناك على السَّـلالم الكبيرة الموصلة للبحر لاستنشـاق الهـواء، وقد ذهبت هناك في ليلة سـكن بها الريح واسـتروح بنسـيمها العليل كل قلب جريح:

وطاب لي النَّسيم فَرقَّ حتَّـــى كأنّي قد شكوتُ إليه ما بي

فجلست هناك انظر للبحر الأسود وكان هاديًا، وإلى القمر وهو كحسناء تارة تحت برقع السحاب، وتارة يلوح باديًا:

والبدر مثل جميلة تاهـت علـــى عشَّاقهـا فترقبوا الميعادا
[١٧/و] فيروح طورًا تحت سُحب براقع ويلوح طورًا حبّذا إذ عادا

وعند هذه السلالم الكبيرة المبنية في وسط البولڤار صورة رشيلي حاكم أودسا السـالف، مادًا يده إلى البحر، وواقف على قاعدة عظيمة مرتفعة، وذلك أنه فعل أشـياء نافعة للمدينة كأنه مُنشـئها، والعادة ببناء آثار لحفظ ذكر الأشـخاص النابغين الذين فعلوا شـيئًا عظيمًا خارجًا عن العادة، وفي بتربورغ كثير من هذا النوع على ما نذكره في موضعه إن شاء الله تعالى.

(١) كذا كتبها المصنف وسنكتفي بذكر هذا الخلاف هنا فقط.

فلِمَ لا نعمل آثارًا لأسلافنا البارعين وآبائنا الفائقين؟ .

وليس لازمًا في الأثر صورة حتى يقال إنها محرّمة، بل يمكن عمل الآثار بلا تصوير، لكن لا يكون بهذا الحسن. وبالجملة فعلُم التصوير علمٌ نفيس يحكي لك الأجيال، ويريك أباك وأمك والعيال، ويمثل لك صورة البلاد والجبال والوهاد، فلمَ لا تشتغل به لتشحيذ القرائح القريحة، وتعليل النفوس الجريحة، مع الخروج من الحرمة، إمّا بالاقتصار على تصوير غير ذي روح من النباتات والأشجار ومناظر البلاد؛ أو بتصوير ذي الروح بكيفية لا يعيش بها، على أن التعلم شيء آخر كما قيل:

تعلَّم السحرَ ولا تعمَلْ به العلم بالشيء ولا الجهل بهِ

وقد كتب لي مسيو فرنيل في مكتوب ما معناه هذا: «ومن جملة ما ذكرتم من محاسن بتر بورغ لم تذكروا التصاوير، لأن أولاد إسماعيل مع حدة فطنتها مفتقرة إلى حاسية عظيمة، وهي حاسية الصنائع النفيسة، وعلم التصوير»، فكتبت إليه: إني ما كتبت شيئًا من شأن الصور لأني رأيتها في مصر. وأحدثت [١٧/ظ]أول مرة تعجّبي واستغرابي حتى قلت:

وصورة حُسْن قاتلَ الله من غدا يصورها ما باله كيف يفعل
كَلِفْتُ بفيها إذْ بدَت غير أنني إذا رُمْتُ تقبيلاً فماذا أُقَبِّلُ

وقلت أيضًا:

وصورة حسن أبدع الدهرُ شكلها إلى أن تعدَّى طورها لبَّ جاهل
توهَّما من عيَّة آدميَّةً ولكنها قد أوتيت عيِّ باقلِ
فنهنهتهم فاستبدلوا الغيَّ بالهدى فكانت لدى الشيطان أقوى الحبائلِ
فقولهم زور شبيه بصادق وزجري لهم حق شبيه بباطل

فكتب إليَّ: إنه أنسر من ذلك، وإن قولي «كلفت بفيها» من أحسن المعاني التي يمكن أن تقال في التصوير، وإنه وجد إنسان عشق تمثال العذراء عشقًا حقيقيًا حتى عانق التمثال، فأزالوه من الكنيسة، وذلك في رومة معدن هذا الفن التي رن فوقانها وطن.

وفي آخر البولفار بيت الكونت فرانسوف حاكم أودسا وما صابها، وما قرب منها مثل بلاد القرم، وقد ذهبت عنده فتلقاني بالطلاقة والبشر، وفرجني بنفسه على قاعته المزخرفة المشحونة [١٨/و] بالصور النفيسة والأواني البديعة، وهي مطلعة على البحر، والأشجار محدقة بها كما قلت فيها:

في قاعة الكونت أشكال منوعة ... تلهي نفوس الأناسي عن أمانيها
على وفاق الهوا فوق القباب بدت ... فهي السفينة وهو البحر منشيها

وسألني عن مصر وما فيها من البدائع، فأخبرته وهو محبب في هذه المدينة، كأنه أب للناس، مجتهدًا في تحسينها وتعميرها بأحسن أساس، وقد عينه القيصر وزيره في بلاد ضاغستان وتفليس، لما رأى أن غنى غنائه في الرشد والإصلاح لا يدخل في باب الحجر والتفليس.

وفي وسط المدينة جنينة صغيرة كجنينة روشتق بمصر، إلا أنها كلها طرق، وفيها معمل للماء المعدني، فتأتي الناس كل يوم في الصباح وتشرب الماء المعدني كل على حسب علته، وتتفسح هناك في خلال الشرب. وهناك في هذا الوقت مويسيقى في بعض الأيام، فلهذا يأتي ناس أخر غير المتداوين للتفسح. وعادة الأوروبيين أن يتداووا من بعض الأمراض بشرب الماء المعدني مدة شهر أو أكثر، فيشربون كل يوم مقدارًا معلومًا كما يأمر الطبيب، منهم من يشرب أربع كبايات، ومنهم أكثر، وبعد شرب كل كباية يتفسحون نحو ربع ساعة، ثم يشربون أخرى وهكذا، وربما سافروا من بلادهم إلى بلاد أخرى لشرب الماء المعدني كما يفعل سكان بتربورغ، حيث يذهبون في الصيف إلى هلذت فورس لشرب الماء المعدني وبعضهم يتداوى بالاستحمام في البحر، ويذهبون لأجل ذلك، وبعضهم يتداوى بالأمرين، ومنهم من يتداوى بشرب الماء البارد غير المعدني كما في غريفين بورغ من بلاد النيمسا، فهناك يتداوى تقريبًا من جميع الأمراض بلا عقاقير.

[١٨/ظ] وفي خارج المدينة حديقة كبيرة تسمى حديقة النباتات، تذهب الناس إليها فرارًا من غبار المدينة وحرها، وهناك أشجار كثيرة وبيوت للسكنى أيام الصيف، وقد ذهبت في يوم حار كثير الغبار خارج المدينة، فمررت بين صفوف الأشجار، فكان الهواء ألطف مع قرب المسافة بسبب عدم كثرة الأبنية، وأمّا في بتربورغ فلكثرة الأبنية خارج المدنية غالب النواحي حارة، فلا بد لاستنشاق النسيم من التباعد، ثم وصلت إلى بيت الجنرال فونتون مترجم الدولة الروسية في اللسان التركي فأكرمني ونوّه بقدري، وبيته على ساحل البحر الأسود محفوف بالأشجار والأزهار، وقضيت هناك النهار في الحظ والسرور بين العين والحور، واندفع عني بهوائه ونسيمه وظله الحرور.

وفي خارج المدينة أيضًا مدرسة عظيمة فيها تتعلم البنات الألسن الفرنساوي والروسي والنيمساوي والإيطالياني والخياطة والنسيج، و نحو ذلك، وقد ذهبت للتفرج على هذه المدرسة، فقابلتني ناظرتها بالبشاشة، وفرجتني على جميع الأوض؛ أوض الدروس، وأوض الطعام، وأوض النوم، وكلها نظيفة ظريفة، وتطل من جميع جهاتها على حديقة كبيرة، ومن حيث إن نساء الأوروبيين وبناتهم يحضرن المجالس فلا بد لهن من التعلم ومخاطبة النساء والبنات في المجالس، مُهذَّبة أخلاق الرجال، مُلطفة طبائعهم، إذ ليس التكلم مع الرجال كالتكلم مع المرأة، الطبيعة تقتضي ترقيق الخطاب للنساء، [١٩/و] فبكثرة ذلك يصير الإنسان مؤدبًا في الخطاب، ومن محال التفسح محل يسمى القصر الملكي، وليس هو بقصر، إنما هي مخازن ودكاكين منضمة، وفي وسطها فسحة مغروسة الأشجار، في غاية اللطف فهذه التسمية مجازية، فتذهب الناس هناك في العصاري، ويتحلون ويتبردون، إذ هناك الحلاوات والمبردات و نحو ذلك. وبالجملة فمنتزهات أودسا تشرح الصدر والفؤاد، وتنسي الغريب هموم فراق الأهل والأولاد. وفي كل يوم ترى هناك الناس بكثرة من الرجال والنساء، وكل هذا ناشئ عن رفاهية البال وحسن الحال، وانتظام القوانين، وكثرة المُثرين، ولما كنت أدور فيها كانت الناس تستغربني وتحدق النظر بي خصوصًا النساء؛ لأن لباسي عربي بالكُلية، خصوصًا لما كنت أركب العربة، والعربات فيها كثيرة كالحمير بمصر،

والخيل باسلامبول، وقلَّ مَنْ يركب الخيل، فعمَّ النظام، وكل عربيات الركوب بالخيل، وأما عربيات البضائع فبعضها بالثيران، وثيرانها كثيران اسلامبول، ولا توجد بها الجواميس، وأما الحمير فإني رأيت بها أتانًا تجري في مروجها فكأنها هربت من أثقال مصر وفي هذه المرة رأيت اثنين، ولم أجد هناك مَن يتكلم بالعربية أوَلًا كما قلت:

إن جُزتَ مملكة الفرنج تجد بها ... ما تشتهيه النفس من أمنية
لكنما العربيُّ في طرقاتها ... مُستَغربٌ يبكي على العربية

فيه تورية باللغة العربية.

لم يلقَ فردًا عارفًا بلسانه ... أبدًا ولا هو عارف الروسيَّة
[١٩/ظ] هو ساكتٌ إذ لم يجد عربًا بها ... لكنه متكلِّمٌ بالنية

ثم بعد ذلك رأيت بعض إفرنج من الذين كانوا في مصر وكلموني بالعربية، وقد كلمتني بنتهم في وسط البولفار، ثم قالت عند الذهاب: اقعد بعافية - على عادة نساء مصر. فقلت حينئذ:

أمرضتني عيونها ... وهي أن تبغ شافية
مع هذا لسانها ... قال لي اقعد بعافية

وقلت أيضًا:

فتاة من الإفرنج تنطق بالعرب ... فتطربني ألفاظها غاية الطرب
لياقة ألفاظ وسحر لواحظٍ ... وثغر كنظم الدُر أحلى من الضَّرب
تربت بمصر بلدتي ولقيتها ... غريبين في مرسى أودسا فيا عجب
وقالت بلطف بعد طول تحدُّث ... بعافية اقعد سليمًا من العطب
فقلت لها إني فديتك راحل ... غدًا وفؤادي قاعد عند من أحبَّ

وصادفت في منتزه أودسا فتاة أفرنجية ببرنس عربي، فذكرت بلادي التي كنت فيها أثرى الأنام من الصبوة واللهو والصبا والمجون:

كان عيشي بها عزيزًا فلا غَرْ ... وَلعيني تبكي بماءٍ مهين

وقلت :

في أودسا بدت حسان الغواني ... يتبخترن في ثياب الجمال
وأرى بينهن فوق فتاة ... برنسًا من ثياب عرب الرجال
أتراها بذلك اللبس ترمي ... لسلامي بغاية الإجلال
فيها قد نسيت وحشة بُعدي ... وكأني بذاك بين الأهالي
أذكرتني بمصر كل رشيق ... يزدري لحظة بعين الغزال
ونضته من بعدما علمتني ... عاشقًا والهوى قرين الدلال
ظلم الردف خصرها مثل ما قد ... ظلمتني ولم تَجُد بوصال
سجنته بين النطاق أسيرًا ... مثل أسرى لقدها الميال
هو بعض منها وما رحمته ... كيف يرجو الغريب رحمة قالِ
وأنا ميت بحية صد غيها ... سليم لكن بغير قتال
ليس إلاّ اللحاظ في وسط البلـ ... ـفار يسطو على النهي بالنزال
وعيوني تنزهت فجنت للـ ... ـقلب حتفًا أمضّه بالنكال
آه من عينها وعيني وآهٍ ... من جفاها وصدها المتوالِ
يا أودسا رفقًا بكل غريب ... واسترى كل طفلةٍ في الحجال

وقلت أيضًا:

تبرنست في أودسا غادةٌ حسنة ... من الفرنج نفت عني الكرا وسنَه
فهل تشير إلى أنسي ببرنسها ... وأنها مع مثلي تفعل الحسنة

وفي أودسا مارستان للمرضى، وبيت لليتامى، وفيها التياتر بالإيطالياني كتياتر مصر، إلا أنه كله بالمويسيقى ذهبت إليه مرتين، الأولى أظهروا فيها السلطان محمد، وألبسوا ناسًا عمائم كالمسلمين فصوروا إحراقه البلاد، وحين خرجت وجدت المطر، فقلت: «هربت من الحريقة وقعت في المطر»، ولم يكن متعمم غيري إلا اللاعبين، فهل أنا منهم؟ لا، ويقصدون بذلك تعليم الناس أخبار الأمم وأحوالهم وطبائعهم، فهو في الحقيقة درس أدب ومغنى طرب،

يقول لسان حاله[1]:

يا مُغرقًا في أدب الدَّرس ... أفضلُ منه أدبُ النفسِ

والثَّانية أظهروا فيها متدلهة من العشق وعاشقها، [١٩/ظ]ولا شك أن هذا يكشط عن القلب جلدة الخشونة والغلظة، فبالجملة التياتر كما قال ابن عطاء اللّه: في الدنيا ظاهره غِرَّة، وباطنه عبرة، وكما قال الآخر:

ليس شيء إلاَّ وفيه إذا ما ... صادفته عين اللبيب اعتبار

وفيها خانات مُعدَّة للطعام مع غاية الإحكام في البناء والنظافة، وعندهم قائمة بما يوجد من أصناف المأكول، فيطلب الشخص ما يريد، وقد يتفق أن جماعة يذهبون معًا للأكل، وكل يأكل ما يريد، وفي بعض الأحيان تأتي في هذه المواضع نساء حسان يضربن بالقانون، فواللّه قد أشغلني حسن صورتهن عن حسن صوتهن، وتذكرت قولي سابقًا:

ليتني للسماع ما كنت أشتا ... ق ولا كنت مولعًا بالملاح
إنَّ عيشي يمرّ في اللهو والحز ... ن وعيش الغبيّ في الأفراح

ومعهن بنت صغيرة جميلة تلم النقطة، وكل مَن أعطاها شيئًا سلمت عليه بكيفية جميلة، وهذا نوع من الأنحناء يسمى «ريفيرانس»، فأين صورة هذه النساء المكشوفات الوجوه من صور من يضرب القانون في مصر من عجائز الرجال؟

تنبيه: لا أعرف كلمة عربية تؤدي معنى ريفيرانس، فلا بد إمَّا من الاتفاق على كلمة، أو استعمال اللفظة الفرنساوية وتعريبها، والروس دائمًا يستعملون كلمات فرانساوية ونيمساوية من جملتها هذه الكلمة مع وجود كلمة روسية، لكن استعمال الكلمات الغريبة ألطف، وهذا كما تستعمل[٢١/و] الكلمات العربية في التركي والفارسي، أو الكلمات الفارسية والتركية في العربي، وأمَا ترجمتها بعمل التمني فلا يناسب:

(١) البيت في: أبي منصور بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، بيروت، المكتبة العصرية، ٢٠٠٣، ص ٥٢٨.

أولًا: هـذه الكلمة للسـلاطين والباشـوات والأمـراء. ثانيًا: عمـل التمني باليـد، والريفيرانس بالرجل وبينهما بَون بعيد، وقلـت مخاطبًا لبعض أحبائي بمصر وأنا في أدوسا:

يـا حبيبي بمصـر ما لك تنسـى ... ولديك المحـــب غـــادر نفسا
سافر الجسـم عنك في سفن النا ... رومـــــا في الوصـــال مرســـا

تورية بشهر مرس الأفرنجي:

جـاز بحـر الهـوى الأجـاج وقاسـى ... فوق قيس عشقًا وضعفًا ونكسا
ثـم أضحـى الهـوا لديـه حميـدًا ... فـتراه في دولـة التـــرك أمسـى
عاش فيهـا فـــوق الخليـج زمانًا ... في التـــذاذ مـا فيه صادف بوسـا
ثـم أجـلاه دهـره وهـو خصـم ... عنـد مُسـوَد بحـر شـدة فتخسـى
ويرى البحـر كالسـمـــاء ولا أر ... ض يراهـا أفي السـموات وأمسـى
ثـم طـاب الهواء وأحسـن لـي الدهـ ... ـــر فأرسـيت عنـد سـيف أودسـا
بلـد تلتقـي إذا كنـــت فيـه ... منـزلاً واسـعًا وخصبـــا وأنسـا
فيـه تمشـي الولـدان والحـور زهوًا ... في جنـان النعيـم صبحًـا وأمسـا

ثم إن أودسـا تسـمى باللغة التركية قواجه بيك، وهو اسـم محل فيها إلى الآن. ولمـا رجعـت إلى أودسـا وجدتها زائدة العمارة، حسـنة الشـارة، فهي كل يـوم في ازدياد، إلا أني دخلتهـا في يوم عاصف الرياح، كثير الغبار، أنسـاني خماسـين مصر، ولكن لما وصلت، وذهبت عند الجنرال فيـدروف النائب [٢١/ظ] مناب الكونت فرانسوف بسبب غيبته، تلقاني أيضًا بغاية البشر، فقلت:

لمَ لا تقتـدي أودســـا بأهليـــ ... ـك فتلقينـــني بأحســـن بِشْر

ثـم إن علمـاء الجغرافيـا قسـموا الروسـيا إلى أقسـام: الروسـيا الصغيرة، والروسـيا الكبيرة، والروسيا الجديدة، والروسـيا القديمة، والروسيا البيضاء، وقـد انضمت إلى الروسـيا ممالك أخـر دانت لهـا، وانقـادت كمملكة اللين والفينلاد والجرج وغير ذلك كما سيأتي.

ثم خرجنا من أودسا يوم الأربعاء ٢٢ آيار في عربة اشتريناها ومررنا على ديوان الجمرك الذي مررنا به أولًا، فنظروا العزال وربطوه بحبال وربطوا فيها قطع رصاص، ثم ختموها وأرسلوا خفيرًا معنا إلى ديوان المكس الثاني في طريق الذاهب من أودسا وبينهما مسافة قليلة، فأخذوا الرصاص المختوم، وسرنا حتى وصلنا إلى أول محطة لأخذ الخيل، وهناك، بل وفي سائر المحطات لا يعطون الخيل إلا إذا رأوا ورقة مسماة البدروجين، وتلك الورقة مُنشنة وعليها نشان القيصر، فبلا هذه الورقة لا يمكن السفر، فهي كالحارس للإنسان، وذلك أن تعطي هذه الورقة فيكتبون عليها: وصل هذا المسافر في ساعة كذا، وسافر في ساعة كذا مع كذا، فإذا حصل بعض شيء يكون التفتيش سهلاً، وهذا البدروجين تارة يشتري، وتارة يعطى على الخزنة إذا كان الإرسال لمنفعتها.

هذا وكل أوراق العقود والتمسكات وحجج الأملاك والشهادة، والعرضحالات وتذاكر المرور وأوراق الولادة، والتعميد والتزويج، والعتق، وغير ذلك لا تكتب إلاّ في ورق منشن بنشان الروس وثمنه مختلف، وفي كل ورقة مطبوع ثمنها. وأول ما دخل ذلك في الروسيا ٢٣ كانون الثاني ١٦٩٩ بأمر القيصر بطرس الكبير[1]، وكان الفرخ من النوع الأدنى بدائرة صغيرة

(١) يعد القيصر الروسي «بطرس الأكبر» القائد السياسي والعسكري الأكثر تأثيرًا في تاريخ روسيا، وُلد في يونيو ١٦٧٢، وتقلّد الحكم بعد وفاة والده ، وهو لم يزل في السابعة عشر من عمره، خاض حروبًا عديدة أولها ما كان في عام ١٦٩٦، وكان عمره لم يتعد الرابعة والعشرين من عمره، وكانت هذه الحرب ضد الأتراك في « أزوف» فانتصر عليهم، وأمن بذلك معبرًا لروسيا إلى البحر الأسود، كذلك كانت حربه ضد السويد، عام (١٧٠٠-١٧٢١) وانتصر عليهم أيضًا لتصبح بلاده أهم قوة أوروبية في الشرق، كما أسس بطرس الأكبر مدينة باسمه « سانت بطرسبرج» ، ثم تغير اسمها بعد الثورة إلى لينينجراد ثم عادت بعد تفكك الاتحاد السوفيتي إلى اسمها الأول، كانت له إصلاحات في مجال التعليم وراح يرسل البعثات للخارج، وكانت كل بعثة تتكون من ١٥٠ طالبًا، لكل مناحي الأرض بما فيها دول الشرق الأوسط لتعلم اللغة العربية. وأمر بطرس الأكبر بترجمة ألف كتاب علمي وتكنولوجي وتاريخي، نضف إلى ذلك أن بطرس الأكبر وقف وقفة جريئة لإدخال الإصلاحات على الكنيسة الأرثوذكسية متهما رجالها بالكسل والبطالة، ووضع على رأس الكنيسة رجلا علمانيا ساعده في القضاء على استقلالية الكنيسة. لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة: فولتير، الروض الأزهر في تاريخ بطرس الأكبر، تعريب،أحمد بن محمد عبيد الطهطاوي، إشراف، رفاعة بدوي رافع أفندي الطهطاوي، سلسلة أوائل المطبوعات، العدد الأول، مركز تاريخ مصر المعاصر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٣، ص ص ت، ث.

فيها نقش ثمنه نصف كبيك فضة، والوسط بدائرة وسطى فيها نقش ثمنه كبيك فضة، والأعلى بدائرة كبيرة، فيها نقش ثمنه عشرة كبيك فضة، ثم ارتفع ثمن النوعين الأخيرين في أيام بطرس، وبقى الأخير على حالة زمانًا طويلاً، وأما الآن فارتفع الثمن جدا، فالنوع الأول ١٥ كبيك فضة، ثم ٣٠، ثم تسعون، وللحجج بحسب قيمة المكتوب له، وأنواع ذلك أربعة وعشرون، فالنوع الأول ٩٠ فضة لما قيمته من ١٥١ إلى ٣٠٠، والثاني ربل وثمانون لما قيمته من ٣٠١ إلى ٩٠٠، وهكذا على الرابع والعشرين فقيمته الكاغد المنشن ١٢٠٠ ربل فضة لما قيمته ٣٠٠،٠٠١ فصاعدًا، وللتمسكات كذلك بالنسبة، ولذلك تفصيل يستدعي التطويل، وإنما القصد ذكر أنموذج من كل شيء.

فأعطينا البيدروچين وأعطي لنا خيل بالأجرة المقررة وبسبب البدروچين لا يقدرون أن يزيدوا في [٢٢/و] الأجرة، وعلى هذه الكيفية سرنا من محطة إلى محطة، وكل محطة منقسمة إلى عدة مسافات يعبرون عنها بفرست يعني فرسخ، والفرست خمسمائة سجين، والسجين ثلاثة أذرع روسية، فبعض المنازل عشرون، وبعضها أكثر أو أقل، وعلى كل رأس فرست عمود من خشب لطيف منقوش مكتوب عليه الذاهب والباقي من المنزلة، وقد كانت في زمن كترين الكبيرة علامة الفرست عمودًا مبنيًا من الحجارة، ويوجد إلى الآن بعض هذه الأعمدة قرب چيتومير، فهذا مما ينشط المسافر، وعند عمد المحطة مكتوب عدة الباقي إلى المدن الكبيرة مثل موسقو وبتربورغ، ولهذه العلة نفسها قسمت الكتب إلى أبواب وفصول، وفي كل منزلة أفراس بالأجرة إلى المنزلة الأخرى.

فكنا نغير الخيل في كل منزلة، تارة نأخذ أربعة، وتارة أكثر بحسب المنازل سهولة وحزونة، وتارة لا يأخذون أجرة السادس، والليل كالنهار في السير والغيم كالصحو فلا مانع أبدًا ولا خوف من هذه الطرق التي هي صحارى بلا أشجار مدة، ثم مملوءة بالغابات والأشجار الكثيرة، ويوجد في بعضها ذئاب وأرانب وحشية، وطالما تعجبت حين رأيت في هذه الطرق امرأة وحدها في عربة أو ماشية، فحقيقة هذا من الأمن العجيب وليس بلازم للمسافر في بلاد

الروسيا حرس ولا خدم، بل هذا من زيادة الخير، وقد ضاع لبعض القادمين إلى بتربورغ. أشياء سقطت من عربته في وسط الطريق ففتش عليها وأرسلت له في بتربورغ، [٢٢/ظ] والبلاد التي جزنا عليها في المنازل كلها محفوفة بالأشجار، وبيوتها أكثرها بالخشب مبيضة من داخل ومن خارج، فهي لطيفة وإن كانت فقيرة، ومررنا على بلاد قديمة معمورة باليهود، وهم كثير في الطرق من أودسا إلى نهر دفينا، وبالمروج كثير من الأنعام غير الإبل والجواميس، وأعجبتني هذه الكيفية المسهلة للأسفار، ووددت أن لو كان للحجاج طريق بهذه الكيفية، وأعجبني رعي عجول البقر الصغار، وحدها أو مع الغنم، وكان الهواء معتدلاً، فكان السير لذيذًا في تلك الغيطان والأشجار التي لا تنقطع حتى قلت:

أبصرت إذ جزت على الروسيا ... أشجارها بالحسن مغبوطة
تدمشقت من حسن جناتها ... على دمشق الشام والغوطة

وقلت:

لو الحريري أبصر الروسيا ... لقال فيها جنة الدنيا
أو عدَّها أوّل جناتها ... لكنه لم يحظ بالرؤيا

وقد أتعبني ركوب العربة أول يوم، ثم اعتدت عليه، وهي أسهل المركوبات بعد السفن على أنها سفين بر الفرنج، كما أن الإبل سفن بر العرب كما قلت موريًا:

وألذ المركوب ما معه ... يسهل إذ ما تروم الرقاد

وقلت كذلك:

عربية العربي جرَّ ... تُه إلى تلك البلاد
فيها مشاربه صفت ... وبها أُتيح له المراد

وكلما مررنا يسلم علينا الناس برفع البرانيط، [٢٣/و] وقد اتفق أن السماء أبرقت وأمطرت في أول السفر، فقلت:

فرحت بمقدمي البلاد وأهلها رفعوا برانطهم لأجل سلامي
حتى السما حيّت ببرقٍ ضاحك والأرض رشَّت ساعةً قُدَّامي

وهذا النوع يسمى حسن التعليل، وهو أن يذكر للشيء علة ليست علته في الواقع، كقول آخر:

وما نزل القطر إلاّ لكي يُقَبِّل بين يديك الثرا

فإنه من البيتين، أن علة نزول القطر وسبب البرَق ليس التَّحية والإكرام والتقبيل، وهذا من التلاعب بالكلام.

ومررنا على أنهارٍ كثيرة أولها نهر بوخ، وعديناه بالعربة في قارب كالطوف يجر بحبل كمعدية أبيار من قرى مصر، وقد شربت من مائه العذب عند المرور. قلت: وعند رجوعي قضيت ساعات قرب هذا النهر، وهناك جبل مخضر في وسط البيوت اللَّطيفة المبيضة، وفيه كنيسة مذَّهبة، وصرت أتعجب من حسن هذا المكان، وأقول: ليس في نواحي بتربورغ مثل هذا المحل في حسن الموضع وطيب الهواء، وهناك انسلخ منا جلد العجلة الحديد، فأعطيناها لحداد ليثبتها، ثم بعد مدة انسلخ ثانيًا في وسط المحطة، فصرنا نسير على المهل ونقول: العجلة من الشيطان، وحقيقة هذه العجلة من الشيطان.

ثم وصلنا كييف يوم السبت، فنزلنا بها للراحة والسبت في خان لوندرة، وهذه المدينة كرسى مملكة الروسيا أولاً وعليها آثار القِدَم، وهي مقدسة عندهم، بها كثير من جثث قسسهم المقدسين، [٢٣/ظ] بغير بلاء يزورونهم في الكنائس، وبها كنائس قديمة منها كنيسة على شكل أية صوفية، وقد طلعت على سطح كنيسة أندريا وتفرجت على المدينة، وهي كثيرة الأشجار والحدائق يحيط بها نهر دينيبر، وهو من أنهار الروسيا الكبار، ويتصل إلى موهلوف، وحولها غابات كثيرة تُرى سوداء من بعيد، وقد رأيت فيها النظام مجتمعين يوم الأحد، فكان تقليب أرجلهم كالموج وقلت:

لا تعجبوا إن كان أهل الروسيا أسد الحروب فأرضها غابات
إن فاتني في مصر أحسن روضة فلدى بلاد الروسيا جنّات

وهي في جبل محصنة، وبها مدافع أخذ بعضها من حروب الترك موضوعه حول القلعة إظهارًا لقوتهم، وإشعارًا بشدة شكيمتهم، وقد قطعت طرقاتها بالعربية ومتعت ناظري برؤية مبانيها وحدائقها البهية، ورأيت فيها فتاة بديعة الجمال تصيد بلحظها أرباب الجلال، قد تدنس فسطانها[1] فغسلته ثم بدلته، فقلت في ذلك :

وغادة خطرت فاقتاد ناظرها قلبي فها هو مرتج على الكفل
ورفعت بيديها الذيل من طبع أصابه تبتغي التنظيف بالبلل
وبدلته سريعًا وهي قائلة هذا جزاء الذي قد زاغ في قلبي

ولما رأتني أديم النظر إلى حسنها، سمحت بإرسال رسول الصفا، فقلت وقد عراني انقباض وجفا:

مذ أرسلت ديوثها لي عفتها خجلًا وقلبي بالعيان قنوع
وأبيتُ حسن وصالها مع حبها إن المحبة بالوصال تضيع

فكأن قلبي سلك طريق سليك بن السلكة[2] القائل: [الوافر]

[٢٤/و] يَعَافُ وِصالَ ذات البَذْل قَلْبي ويَتَّبِعُ المُمَنَّعَةَ النُّوَارَا

ثم لما قوضنا خيام الإقامة وعزمنا على الترحال، صارت تجري أمامي محلقة على دجاجة بيديها فقلت:

(١) كذا كتبها المصنف، أي: الفستان.
(٢) هو السُّليك بن عمرو «أو عمير» بن يثربي بن سنان من بني مقاعس، والسلكة نسبة إلى أمه. أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، (تحقيق): تحقيق جماعة من العلماء بإشراف : محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٢٠، دار الكتب المصرية: القاهرة ، الطبعة الأولى، ١٩٢٩. ١٩٩٤، ص ص ٣٧٥– ٣٨٩ ، والبيت في المصدر السابق٢٠: ٣٨٤.

صادت فؤادي عند كيف رشيقة ... سحرته بالنفثات من شفتيها
قد سرت عنها وهو باق عندها ... بث الهوى الإيماءُ من عينيها
فكأن ذا منها عناقُ مودَّع ... لما رأت أني أميل إليها

ودائمًا تسمع في كيف دق الأجراس، وكذلك في سائر البلاد، فإنها مشحونة بالكنائس خصوصًا المدن، وقلت مكتفيًا:

وسامرتها والليل مُرْخٍ ذيوله ... علينا كأنَّا قاضيان على الهوى
ومذ سمعت صوت النواقيس هرولت ... تصلي فراعت مهجتي ضربة النوى

النوى: مختصر من النواقيس، وهذا هو الاكتفاء. أو بمعنى البعد، ولا يحسن الاكتفاء إلاّ إذا اشتمل على التورية كهذا، وكقولي:

شكوت للمحبوب نيران الجوى ... بكبدي فماس تيهًا وقلا
وقال لي أنت الخليل لي فلم ... لا أصبحت عليك بردًا وسلا

فإن سلا : إمَّا مختصر من سلامًا أو فعل من السَلو.

وعلى ذكر النواقيس قال الحاجري[1] :

مذ قام يضرب بالناقوس قلت له ... مَنْ عَلَّم الظبي ضربًا بالنواقيس
وقلت للعين أي الضَّرب يؤلمكي ... ضرب النواقيس أم ضرب النوى قيسي

وعليه مؤاخذة أدبية حيث نسب الإيلام للعين وحقه أن ينسبه للقلب، وكأنه قاسه على قرة العين، والفرق ظاهر، لأن قرة العين سكونها عن الطماح أو بردها سرورًا، وهذا ناشئ عن سرور القلب، وإنما ينسب لها البكاء الناشئ عن حزن القلب، كما أن حزن القلب ناشئ عنها، فالعين تنظر فيألم القلب فتبكي العين، [٢٤/ظ] فكأنها جوزيت حيث كانت السبب، باقتسام

(١) هو: عيسى بن سنجر بن بهرام بن جبريل الحاجري، حسام الدين. توفي سنة ٦٣٢هـ. ابن الشعار: قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان (المشهور بـ: عقود الجمان في شعراء هذا الزمان)، (تحقيق): كامل سلمان الجبوري، ج٥، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، ص ص ٢٨١– ٢٨٦؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ج٣، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢، ص٥٠١– ٥٠٥.

الحظ مع القلب وبكائها بردًا للسرور وحارًا للحزن، فسبحان اللطيف الخبير.

وأيضًا فلا يحسن في الذوق الأدبي إشباع الكاف فهو إشباع جائع من الأدب، وأيضا فإن ضرب النواقيس من حيث هو لا يؤلم وإنما يؤلم من حيث أنه يسبب الفراق، كما فعلتُ في شعري.

وعلى ذكر النواقيس، فلنذكر الناقوس الخالد، وهو في موسقو في حفرة متسعة محفوفة بالنباتات قرب كنيسة يوحنا الكبير، ويتوصل إليه بسلالم نحو عشرين، وهو أكبر النواقيس الموجودة في الدنيا، حتى ادعى بعض المصنفين أنه لا يمكن تعليقه ولا نقله، وكذب الروايات المشهورة أنه كان معلقا في نوڤغورد، ونقل إلى موسقو وعُلق، ثم لفرط ثقله قطع علائقه واستراح في هذه الحفرة سآمة من طول الانتصاب، لكن حقق بعض المهندسين أنه يمكن تعليقه ثانيًا، لكن بصرف ألوف رُبل، ويظهر كجبل من المعدن، قيل إنه لما سبك رمي الناس الخواص والعوام فيه فضياتهم وأوانيهم، ولهذا يميل لونه إلى البياض الفضي ويلمع، والفلاحون يزورونه في الأعياد ويعظمونه كالكنيسة، ويخاطرون في النزول والصعود ويُصَلَّبون. ومحيط دائرته على ما حسب بعض المهندسين سبعة وستون قدمًا وأربعة أصابع، وعلوه أحد وعشرون قدمًا وأربعة أصابع ونصف، وغلظه حيث يضرب ثلاثة وعشرون أصبعًا، ووزنه أربع مئة وثلاثة وأربعون ألفا وسبع مئة وسبعون رطلًا، وقيمته ستة وستون ألفًا وخمس مئة وستون ليڤرستيرلانك وستة عشر كبيك، مبلغ جسيم وأثر عظيم يبلى الدهر ولا يُبلى.

وبعد رؤية هذا لا يتعجب من رؤية [٢٥/و] نواقيس يوحنا الكبير التي أعظمها أربعة آلاف البود ـ أربعون رطلًا ـ لكن يتعجب كيف تقدر الحيطان أن تنوء بهذا الحمل الثقيل، وبعضها من الفضة لولا بعض خلط ضرروي لصيرورته مصوتًا رنانًا، وفي كييف مدارس؛ منها مدرسة البنات، وقد أعجبتني من ظاهرها، فكيف من باطنها[1]: [البسيط]

الغصن هذا فأين الظل والثمر.

(١) صفي الدين الحلي: ديوان صفي الدين الحلي، دار صادر ، بيروت، د.ت، ص٤٣٩.

وفيها مواضع كبيرة ترصد فيها الحريقة مشحونة بآلات الإطفاء كالطرنبات وبراميل الماء، وعند بيت حاكم كييف حديقة كبيرة على حائطها أشجار متناسقة الوضع شاهقة في العلو مع ستر أغصانها لطرق الحائط، وفيها قلاع مبنية بالأحجار، وكذلك بيوت كذلك وبالخشب كبيوت الريف، وكل السقوف مسنمة في تلك البلاد كبلاد الروم لا مسطحة كمصر، ثم خرجنا من كيف يوم الاثنين ٢٧ منه من باب آخر مقبب، وهناك عدة قبوات تمر السابلة منها فنزلنا بالعربية في النهر في معدية كبيرة، وكذلك نزل عربيات وخيل وناس كثير، وسرنا تحت المدينة وجبلها المحفوف بالأشجار، وهناك معامل كثيرة لضرب الطوب وعدة أقمنة لإحراقه محكمة الصنعة متقنة، ثم خرجنا مع العربية من المعدية، وهناك توجد رملة مشتملة على هضاب فذكرت قول امرئ القيس[1]:

[الطويل]

فلمَّا أجَزْنا ساحَةَ الحيِّ وانتحى بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل

لكنها ليست كبيرة، بل الأشجار غالبة بحسنها وتمايلها، وفي هذه النواحي رأيت الفلاحين يحرثون الأراضي كما في مصر، إلا أن الأغلب أنهم يجرون المحراث بالعجل، ومررنا على الغربول، [٢٥/ظ] وهي مدينة محفوفة بالجبال والأودية المشحونة بالأشجار، وهناك لما نزلت للاستراحة أحدق بي ناس كثيرون يتفرجون على شكلي الغريب، وهكذا في جميع الطريق، وقد اتفق أني رأيت في بعض المحطات فتاة ظريفة الشكل، فصارت تنظر إليَّ وصرت انظر إليها، وكان المطر أحسن إلي بالوقوف أمامها فقلت :

هيفاء من شباكها قد رنت نحوي وقد طار جناح السفر
أحسن شيء راقني أنها تحب أن أحدق فيها النظر
رُمان نهديها بدا نصفه والوجه كل الحسن فيه ظهر
لا كعذارى مصر يخفين من حسن المحيا غير غُنج الحور
أبدت ثنايا بعقيق[2] اللما قد ختمت لا بعقيق الحجر
أوقفني في حيَها برهة حتى برؤياها نعمت المطر

(١) امرؤ القيس: الديوان، ص ٣٩.

(٢) ورد هامش للمصنف علي يمين الصفحة ونصه: به تورية لأن العقيق قد يجعل في الختم فيختم به، والثغر يشبه بالخمر فيقال فيه مختوم مع أنه كالختم.

ثم وصلنا إلى موهلوف، صُبح الخميس ٣٠ منه، وبها وضعنا عصا التسيار، وأقمنا بها مدة ٢٣ يومًا :

دخلنا على أن المقام ثلاثة فطاب لنا حتى أقمنا بها عشرًا

وهي مدينة جميلة محفوفة بالأشجار والحدائق، ويتصل بها نهر دينيبر، وقد ذهبت في يوم وصولي خارج المدينة، وكان يومًا حسنًا، لأن التلامذة كانوا يلعبون بالمويسيقى، ويغنون، وفي آخر يوم آخر ذهبت إلى المدرسة، وتفرجت على المغناطيس وجذبته، فذكرت قول الشاعر[١]:

كأن وجهك مغناطيس أنفسنا فحيثما درت دارت نحوك الصور

وقلت :

ما حيلتي في حب غانيةٍ قد حملتني في الهوى وصبا
الوجه مغناطيس أنفسنا لا غرو أن قلبي الحديد صبًا

وذهبت يومًا آخر في ضواحي المدينة عند عين تجري هناك، وشربت الشاي هناك على عادتهم تحت سقيفة لطيفة تقي [٢٦/و] من المطر، وكان معنا حسان، فقلت:

مضى زمن في موهلوف قضيته بحور حسان في الجنات وولدان
أرسيت بعين عند تدفقت فلله في أنسي وحزني عينان

وعليّ في تثنيه العين مع اختلاف المعنى ما على الحريري في قوله[٢]:

جادَ بالعين[٣] حين أعمى هَواهُ عينهُ فانْثنى بلا عَينْين

مع أنه لا لوم عليه عند الأدباء. وذهبت في جهة أخرى إلى الحديقة الكبيرة التي عندها مدرسة البنات، فصرن يجرين نحوي، وتفرجت على ضرابي الطوب خارج موهلوف، وما يقاسونه من الأشغال إذ ليس الطين عندهم ليّنًا كما في

(١) أبو الفضل المرادي: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ج٢، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ، ص٢١٣، ضمن ترجمة صالح الجينيني غير منسوب لأحد.
(٢) الحريري: المقامات الرحبية، مصدر سابق، ص٩١.
(٣) جاد بالعين : بالذهب والفضة، انظر: المصدر السابق، ص٩١.

مصـر، وتفرجت على قاعة كبيرة مسـقفة للنظـام إذا كان المطر، وهي مثل قرا ميدان في مصر.

وذهبنـا إلى الـزروع وبتنـا في الضِّياع يومـين ، ووصلنا إلى بـودن، ورأينا عندهـا عينًـا تجري تنبع مـن الرمل على وجـه الأرض، وقد وضعـت فيها عصًا كانت معي فدفعتها قوة الماء، وهي محفوفة بكثير من الأشجار، ومبني عليها حاصل صغير، فلله تلك العين ومنظرها الذي تقرّ به العين، ويسهل فيه إنفاق العـين كثرة العيـون، وتفرجنا هناك على صيد السـمك مـن النهر الخارج من تلك العين، وعدينا في زورق الصيادين وهو صغير جدًا، فطأطأت رأسـي لكي يسـهل علـيَّ التجديف، وقد اسـتحوذ على شـيطان البق في إحـدى الليلتين، فبـت بليلةٍ نابغية. ورأيت معمل القطران، وشـجر البنـدق، وغير ذلك من أنواع الزورع كالبسـلة والقمح الأسـود والشـعير والبتاتس، ورأيـت زرع الفواكه كالخوخ في بيوت تدفأ بالنار، ولا تخرج هذه الفواكه إلا في الشـمس، فلذلك تقـل الفواكه في تلك الديار مع [٢٦/ظ] كثرة أشـجارها، فليسـت كمصر، فإنها كثيرة الثمار جدًا من خوخ وبرقوق ومشمش وعنب وبطيخ وتين برشومي وبلح أحمر وأصفر... إلخ وقثاء، وخيار وقاوون وتفاح وموز ولوز وبرتقان وقصب السكر. وبها كثير من الرياحين كالورد والياسمين، ومن الخضار كالملوخيا والباميـا والقلقاس، إلى غـير ذلك مما لا يحصى مع رخص السـعر جدًا، فلذلك قلت :

للّه مصـــــر وحســـــن تربتها	ونيلهـا بـل رياضهـا النضره
إن كانت الروسـيا نمت شـجرا	فـإن أشـجارها بـلا ثـمـره

وفي موهلـوف رأيت كثيرًا مـن البنات الصغار يلعـبن بالقانون، ويرقصن عليه ويغنين، فقلت حين أطربني ذلك:

هويـت أفرنجيـــة طفلـــة	تبـــرقعـت بالحســـن والدلِ
تلعـب بالقانـون حينًـا كمـا	تلعـب بالقانـون في وصلـي

وقلت أيضًا:

بعدما أطربت بشدو لحون	رقصت مـرة علـى القانون
وتثنـت في رقصها وتهادت	فتبدلـت حشـمتي بالمجـون

ثـم بعد ذلـك رأيت النسـاءَ أيضًا يلعـبن ويرقصن من غير نكـير، وهذه عادة تلك البلاد، إلا أن رقصهن بالحشـمة مـع الرجال بأن يضع الرجل يده على خاصرتهـا وينطان بصناعة ولا يسـتنكرون ذلك أبـدًا، وربما رقص الرجل مع امـرأة غيره بحضرته من غير إحسـاس بغِيرة، ويعدون ذلـك من الأدب واللطف، وتقضية الزمان بالحظ والمسرة، [٢٧/و] ودائمًا محادثتهم مصونة من غير الأدب، إلا أنه تارة ينشأ من ذلك العشق والفساد.

وفي موهلوف حمام، وقد اسـتحممت فيـه وحدي، لأني كنت عند صاحبة فأخلاه لي، والعادة أن يستحم الناس معًا، ويقلعون عرايا ولا يتفوطون، فليس معيبًا عندهم كشـف العورة في الحمامات وكذلك النساء مع بعض، وليس كحمامـات مصر المشـتملة على عـدة مغاطـس وحنفيات، بل فيه طشـوت وأسـطال مملوءة ماءً باردًا وحارًا وصابون وأغصان أشجار صغيرة،وهذا أنموذج لحمامات بتر بورغ إلاّ أن فيها حنفيات وفيها حوض كبير مملوء ماء للاستحمام، وفيها الحماميون يغسـلون الشـخص بالليف والصابون، إلاّ أنهم لا يكيسون وبالجملة ففرق بين حمامات هذه البلاد التي هي أوض من خشب، أو حجر مدفاة، وبين حمامات مصر واسلامبول التي هي قصور حسنة البناء والتبليط والترخيم، وبها كل ما يحتاج إليه من فوط وتكييس وتصبين إلى غير ذلك.

ثم في عصر السـبت رابع جمادى الأولى ٢٣ حزيـران، خرجت من موهلوف مع صاحبي، وشـيعنا أقاربه وأصحابـه بعض أميال ثمّ ودَّعونـا، فكان ذلك الوقت مشبها لوقت خروجي من القاهرة وقلت:

للّه أيَّـــــامٌ تقضَّـــــ ـــــت بالصفا في موهلوف
كم مِنْ حِسانٍ أبصرَت عيـني وكـم خِـلٍّ ألـوف
لا تنكـروا زرق العيـو ن فهكـذا نصل السـيوف

ثـم جزنـا في الليل على قرية صغيرة تسـمى سـكندرية، وقد اسـتحوذ شـيطان الحريقـة علـى بيوتهـا، وعند ذلـك رأيت أهـل القريـة محدقين حول النيران، ولا يستطيعون إطفائها، وقلت ملوحا بقصة إسكندر ذي القرنين:

[٢٧/ظ] ولما بدت إسـكندرية سحرة رأيـت بهـا نـار الحريقـة لا تهدا
فهـل خـوف يأجـوج ومأجوج قـد أتـى هناك ذو القرنين يبني بها السدا

وقبـل الوصول إليها بدا اللهيب، فكنا نظن أنه شـفق، فهذه الليلة كانت كليلة ابن بابك[1] حيث قال:

[البسيط]

وليلـةٍ بـتُّ أشـكو الهـمَّ أولهـا وبـت آخرهـا اسـتجذب الطربـا
في غيضة من غيـاض الحزن دانية مـد الظـلام علـى أرواقهـا طنبا
يهـدي إليها مجاج الحمر سـاكبها فكلمـا دبَّ فيـه أثـمـرت لهبا
حتـى إذا النـار طاشـت في ذوائبهـا عـاد الزمـرد مـن عيدانهـا ذهبا

ثم مررنا على ڤينسيك ، وهي مدينة كبيرة قديمة بها كثير من الكنائس، وأقمنـا بها يومين، وذهبنـا إلى غيطانها وغاباتها وحدائقهـا الكثيرة الأزهار، وبهـا كثير من اليهود مثل موهلوف وسـائر البلاد التي جزنـا عليها، ومن بعدها بقليـل تَقلّ اليهود، فلا يُرى إلا محض الـروس خصوصًا في بتر بورغ، إذ ممنوع فيها سـكناهم، فمن جاء لوقت معين. ثم خرجنا من هذه المدينة والوقت ضحو، كمـا في غالب الطريق والـبرد قليل، وإن كان في بعض الأوقات المطر، ثم في يـوم الجمعة ازداد البرد وعصفت الرياح وأظلمـت الآفاق، وذلك عند القرب من

---

(١) هو: عبد الصمد بن منصور بن بابك، أبو القاسـم. توفي سـنة ٤١٠هـ. الثعالبي: يتيمة الدهر ، مصدر سابق، ص ص ٤٣٦- ٤٤٥؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج ٣، ص ١٩٦-١٩٨؛ والذهبي: تاريخ الإسـلام، مصدر سابق، ج٩، ص ١٥١-١٥٢. والأبيات في يتيمة الدهر ، مصدر سابق، ج٣، ص ٤٣٨.

بتربورغ ، فقلت:

أنـا يا بتر بـورغ جئتـك بالبــــ	ــشـرِّ وتلقينني بوجهٍ عبوس
أنـتِ غضـبي علـيَّ أم ذاك تيـهٌ	ودلالٌ والتيـه شـأن العـروس

ثم بعد برهة تبسمت الشمس بالإشراق، فقلت:

عنـد ازديـاري بـتر بـورغ رأيتهـا	بنت السـرو يضمها ابن سـحاب
خافـت وذا مـاء البـكاء وقبلهـا	خافتـني الأبـكار لاسـتغرابي
[٢٨/و] أو أنها استحيت وذا عرق الحيا	والبكـر يخجلها لقـا الأغراب
مـا زلـت أخدعهـا بلـين مقالـتي	حتـى تبسـم ثغرهـا لخطابـي

وفي قرب بتر بورغ الروضة الملكية المحفوفة بالأشجار المتناسقة والجداول المتدفقة والقصور الشـاهقة والأزهار الباسـقة والطرق إذ ذاك بين سـطرين من الأشـجار كما في غالب الطرق فاذكرني ذلك طريق شـبرى بقـرب القاهرة، إلا أن الأشـجار في هـذه الروضـات أكثـر لكن في تلـك أطيب وأبهـى وأثمر، وبالجملة فكل طيب من جهته، وأنا شـاكر للسفر على إحلالي بهذه الجهة، وهـذه طريـق العربيات، وهنـاك طريق أخـرى، وهي طريق الحديـد البخارية، وهي لا تنقطع كل يوم تروح الناس فيها صيفًا وشـتاء، إلاّ أن الصيف أكثر، فتذهـب الناس أفواجًا للتفسـح هنـاك والتفرج على ما هناك مـن العجائب مثل بيت الأسلحة، ففيه أشياء عجيبة محفوظة.

وقد رأيت هناك زيادة على الأسلحة غاشيتين من صفين بالألماس أهداهما السَّلطان محمـود إلى القيصر، وهناك بيـت للفيل، وللأغنام الغريبة، وسـائر الحيوانات الغريبة الشـكل، ثم من تسارسـكياسلو [(١)] تذهب عربات البخار إلى بافلوسـكي- منتزه جميل فيه بستان كبير وآثار عجيبة، فيقتلون الحر على شواطئ تلك الغدران ويتبردون بالحلاوات المجلدة، وشم الريحان.

---

(١) أي: قرية القيصر، مسكن العائلة الإمبراطورية.

وهنـاك مررنا على الرصد، لكـن ما رأيته إلاّ بعد مع جناب سـفير جوقند العـالم العلامة محمد خليل صاحب زاده الفاروقي نقيب الأشـراف، وقد شـربت معـه أفاويق الأدب، واسـتجلينا عرائس الطرب، وما رأيت من السـفراء الوافدين إلى بترب ـورغ مـن ذوي الفضل والآداب إلا هو وجناب سـفير الدولة العلية حضرة فـؤاد أفندي، وقد مثلت بين يديه وتجاذبنا كما قال الحريري طرف الأناشـيد، وتواردنا طرف الأسـانيد، فوجدتـه تعلمة نقَّادًا، وألِفته روحًا لجسـم الأدب، ولا بِـدَع أن سُمِّـي لذلك فؤادا، وفي تلك السـبل صـارت الخيل تجـري كالطيور، والأرض تطوي كطي الزبور، فتمثلت بقول الشاعر[1]:

وكنتُ إذا ما جئت ليل[2] أزورها أرى الأرض تُطـوى لي ويدنو بعيدُها

وسـبب ذلـك أن هذه الطـرق مثبتـة بالأحجار الصغـيرة، وتسـمى منعولة كأنها لابسـة نعـلاً، فما ألطف من مشـي العربـات عليها بخـلاف الطرق غير المنعولة، فيعسـر عليها مشي العربات، ثم في آخر هذا اليوم الذي هو آخر حزيران وحادي عشر جمادى الأولى، دخلت بتر بورغ:

وكان آخـر عهد الطـرف من فرحٍ بالدمـــع أوَّل عهـــد القلب بالجَلَدِ

(١) هو : كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر، أبو صخر الخزاعي الشاعر، ديوان كثير، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧١. والبيت في ديوانه ، ص ٢٠٠.
(٢) جئت ليل: في الديوان زرت سعدى.